فلسفة مريض نفسي

إدجرفور العباس

جَمِيعُ الحُقُوق مَحْفُوظَة

عنوان الكتاب: **فلسفة مريض نفسي**
المؤلف: **إدجرفور العباس**

© الماهر
للطباعة والنشر والتوزيع

تعاونية الفلاح العامة للطباعة والنشر والتوزيع
البريد الإلكتروني: dar.elmaher@outlook.fr
الهاتف الثابت: 036.48.00.17

ISBN : 978-9931-762-27-0
D.L : 11-2021

إهداء

يقولون أن الروح تتعلق بما تراه العين فقط وأنا أقول عكس ذلك، كيف تعلقت بحسابات لم أر أصحابها يوما؟ كيف سهرت كل تلك الليالي دون مسنجر سوى الرد على التعليقات وأنشر؟ أهدي هذه الرواية لأعضاء فلسفة مريض نفسي أصحاب القلوب البيضاء وأخص بالذكر من شجعني لتأليفها وأهديها لصوت الحمام الجميل الذي لطالما استهواني.

مقدمة

الرواية ليس لها أي توجهات وتحوي كمية كبيرة من الأخطاء العلمية فلا تأخذ منها شيئا، هي للتسلية والمتعة فلا تجعلها تلهيك عن أولوياتك، ليست للنقد فلا تتصيد لي الأخطاء، قليل منها واقعي والباقي خيالي فلا تظن أن هذا حصل معي، لست أطمح لمنافسة أحد فلا تقارني، آسف للإطالة، يمكنك البدء الآن في كميات كبيرة من الملل والبساطة.

الفصل الأول

"حياة فتى بائس"

16 جوان 2013

مدينة أولف ولاية أدرار – الجزائر

تعالت ضحكاتهم فوق العادة وزادت سخريتهم من ذلك الطفل المشوه، يدورون حوله بشكل حلقي ويرددون: "أيها المشوه ... أنت عالة على أهلك" وفي وسط تلك الدائرة يجلس طفل في ال12 من عمره واضعا يديه على أذنيه محاولا منع الأصوات من دخولهما ولكن هيهات ... دقت صفارة المدرسة معلنة نهاية الاستراحة، هذه الصافرة التي كانت بمثابة راحة له. الا أن الازعاج كان رفيقه في كل وقت حتى في منزله، (فعند جلوسه على مائدة الطعام يجد أخاه مقابلا له بوجه يعلوه الغيظ ولسان حاله يخبره أنه عبء ثقيل عليه).

انتهى الدوام وقد حان وقت عودته الى منزله وعليه أن يسلك ذلك الطريق الطويل الذي اعتاد السير فيه، ليس لأن المدرسة بعيدة عن البيت ولكن لأنه يخلو من الأطفال الحمقى الذين يضحكون من شكله كلما رأوه.

في العادة يستغرق نصف ساعة ليصل الى منزله ولكن لأنه اليوم محبط فقد أمضى ساعة كاملة في السير، يترنح تارة ويعتدل تارة أخرى حتى أنه كاد يغمى عليه من الحزن، طفل لم يتعد الثانية عشر يتلقى كل هذه الإهانة، الأمر يبدو محزنا حقا ولكن لا أحد من البشر يحس بآلامه التي يعيشها وهذا العالم القبيح الذي يستيقظ صباح كل يوم ليواجهه .

* * *

27 فيفري 2015

في غرفة متوسطة الحجم ذات جدران مطلية بالأزرق الباهت، طفل أقرع الرأس ذو عينان زائغتان وشيء يشبه الحرق تحت عينيه، يجلس على سرير خشبي واضعا حاسوبا صغيرا من نوعية hp العالمية على طاولة صغيرة، يتصفح الإنترنت بمتصفح القمر الباهت "pale moon" لأنه المفضل لديه لكونه يتماشى مع التدفق الضعيف للإنترنت، كان قد فتح صفحتين، الأولى كانت للفيسبوك والثانية كان يمارس فيها هوايته وهي اختراق المواقع ورؤية أسرارها، هذا ليس مهما بقدر أهمية تلك الصفحة الفيسبوكية، كان يقضي وقته -أو فلنقل حياته- في ذلك الفضاء الأزرق، لا تستغرب، فمن لم يجد الحب في الواقع، بالطبع سيلجأ إلى المواقع لكنه قد وجد الحب حقا، وعندما أقول الحب فليس بالضرورة شخصا، لأن صديقنا لديه مجموعة فيسبوكية بها اثنان وثمانون ألف شخص كلهم يحبونه رغم أنهم رأوا صورته البشعة في حسابه الشخصي، كان ينشر منشورات يحكي فيها عن معاناته وسخرية الناس منه وبالمقابل تنهال عليه التعليقات (لا تنظر لهم أنت جميل وسيندمون يوما على سخريتهم منك...) يقرأ التعليقات ويرد عليها ثم يتذكر أنه تأخر عن تلك الفتاة التي راسلته في المسنجر بعد أن علمت بموهبته وطلبت منه أن يعلمها الهكر وكان يضع لها كل يوم درسا، حتى أنه قرر ذات يوم أن يتوقف ويرميها في قائمة الحظر ليتخلص من هذا العبء، لكنه تذكر كلمات معلمه (هواري) :"ربما سيطلب منك أحدهم أن تعلمه الهكر، إياك أن ترفض حينها، التلميذ الأول كثيرا ما يكون جادا، لذلك لا تبخل عليه ".فوضع لها درسا مع الشرح ثم أغلق حاسوبه واضطجع على سريره متأملا السقف لبرهة من الزمن ثم بدأ يفكر في حياته التعيسة ويلقي اللوم على القدر الذي جعله هكذا، طال تفكيره هذه المرة وفكر في أن يهرب من منزله ويعيش منعزلا عن الناس في مكان لا يراه أحد ولكن سرعان ما

اضمحلت هذه الفكرة من رأسه وأخذه النوم في أحلام وردية تمنى تحقيقها يوما .
استيقظ (العباس) في اليوم الموالي والأفكار تتشابك في رأسه وكأنها هباء نفخ فيه، عدّل جلسته على السرير وحك عينيه بسبابتيه ونفض جسده ليجهز نفسه للمدرسة، غسل وجهه وتأمل نفسه في المرآة وهو يقول: من المفترض أن أقول الآن "اللهم أحسن خلقي كما أحسنت خلقي" ولكن خلقي ليس بحسن فما الذي يجب علي قوله، ههه الوقت متأخر وأنا أفكر في هذه الترهات، وفجأة سمع صوت أمه يداعب أذنيه قائلا: العباس... العباس... الفطور جاهز.
العباس: أنا آت يا أمي .
نزلت السلالم مسرعا لأتناول فطوري، كان الطعام موضوعا على زربية تصطف فوقها كؤوس مملوءة بالحليب وبجوارها خبز محشيٌ بالزبدة، رفعت سروالي قليلا وجلست قرب أمي ونظرات الغيظ التي يرمقني بها أخي تكاد تقتلني، طأطأت رأسي وبدأت آكل طعامي فليس لدي وقت لأفكر في هذه النظرات، نهضت مسرعا بعدما أكملت فطوري والزبدة عالقة على شفتي فالعجلة والخوف من عقاب المدير جعلاني أنسى غسل فمي.
وصلت إلى المدرسة مع آخر لحظة، كان مدير المدرسة يأمر الحارس بغلق الباب لكن صرخة مني جعلته ينتظر قليلا إلى غاية وصولي.
هذه المرة قد تمادى الأوغاد فوق العادة في سخريتهم وأصبحوا يضربونني إلى أن احمرت جلدة رأسي من كثرة الصفع، حتى دموعي التي غسلت وجهي لم تشفع لي أمامهم، اااه لكم تمنيت أن أنتقم يوما، لكن هيهات مع هذا الجسد النحيل والوجه الذي لا يخيف قطة، لكنه يستفز مرضى القلوب ليسخروا مني ويضربوني، توالت علي الصفعات حتى سمعت صوتا غليظا يبدو لرجل متين يقول:" توقفوا أيها الأطفال الأوغاد"، توقفت تلك الأيادي عن الصعود والنزول فجأة، واختفى الجميع من حولي

هاربين، لم أعِ ما حصل بعدها فقد استيقظت ووجدت نفسي على سريري الخشبي ممددا وأمي جالسة بقربي وعيناها يملأهما الحزن والقلق، أملت رأسي ببطء باتجاهها وكأني أشرت إلى السكون كي يختفي لأن الأسئلة بدأت تنهال علي كالمطر:
-أمي: كيف حالك يابني؟ ومن أولئك الاطفال الذين فعلوا بك هذا؟ ولماذا؟ أخبرني من هم لأخبر أهلهم.
-أردت التكلم حينها ولكن جملتها الأخيرة جعلت صوتي يعود إلى مكانه، بالطبع لأن المشاغبين لن يرضخوا بعقاب أهاليهم بل سيزدادون طغيانا وسينتقمون مني، واصلت النظر إلى عيني أمي أبحث عن اجابة تهدئ روعها وتقيني شرهم، دمعة سقطت من عيني كانت كفيلة بإنقاذي من هذا الموقف، جعلت أمي تضمني إلى صدرها، شعرت حينها وكأن الهم كله قد انزاح عن صدري في تلك اللحظة، وقالت بحنان: "استرح الآن، وغدا سأذهب معك إلى المدرسة لتريني أولئك الصبية لأحاسب أهاليهم على قلة التربية" لم تعلم أن هذه الكلمات قد زادتني رعبا وستكون فيصلا في قراري القادم. تركتني في غرفتي لأرتاح ولكن الراحة لم تدخل لرأسي يوما. بدأت أفكر في كل صغيرة وكبيرة، أقلب الذكريات في عقلي بحثا عن شيء جميل ينسيني حزني كقطعة نرد يريد صاحبها الستة ولكنها تأبى ذلك، علمت أن لا جدوى من هذا فاستجمعت شتات قلبي واعتدلت على سريري أنظر فوق تلك الطاولة الموضوعة في ركن الغرفة وفوقها حاسوبي الذي أهداني إياه عمي قبل ثلاث سنوات، وضعت يدي على خشبة السرير ونهضت متجها نحو حاسوبي حاملا إياه وعائدا به إلى سريري لأفتحه، وجدت أن الانترنت مقطوعة هذه المرة، ياللحظ العاثر، لكن لا بأس لأن انترنت الجيران موجودة. فبالرغم من أنها محمية الا أن لا شيء يقف أمامي في عالم الحواسيب، ماهي الا لحظات وقد وجدت كلمة السر وأدخلتها، فتحت المتصفح فظهرت لي نافذتان كانتا محفوظتين منذ يوم أمس، الاولى كانت للفيس بوك والثانية كانت لآخر موقع مارست فيه هوايتي (استغرق مني

الامر ٣ أيام حتى استطعت اختراق هذا الاخير بسبب أنه كان محميا بعدة خوارزميات، لم أعلم بوجوده حتى، لولا تلك الرسالة التي أتتني من مجهول يتحداني فيها بأنني لن أستطيع اختراق هذا الموقع). اخترت النافذة الاولى وأنا أعي جيدا ما أريد فعله تماما، دخلت للمجموعة التي كنت أنشر فيها حياتي والتي فيها أصدقائي الحقيقيين، كان اسمها "فلسفة مريض نفسي". ضغطت على أيقونة النشر لأكتب فيها آخر منشور لي في الفيسبوك أودع فيه هذا الفضاء الأزرق.

الساعة الان تشير الى الأصفار الأربعة والجميع نيام لكن عيني أبت النوم دون أن أضع حدا لهذا العذاب. نهضت من السرير متحاشيا اصدار أي صوت قد يكشف أمري. فتحت باب غرفتي ونزلت السلالم حافي القدمين والنعل في يدي. ثم فتحت قفل باب البيت ودفعت بجسدي الى الخارج كلص أخذ ما أراد ويريد المغادرة، جذبت الباب من خلفي ووضعت نعلي على الأرض لأنتعلهما. سرت في الشارع متجها نحو المجهول، المهم ألا أبقى في هذا البلد لأني لم أعد أطيق كل هذه الاهانات المتكررة. آسف يا أمي لأني هربت من المنزل لكنك ستألفين غيابي سريعا. اااه كم أحتاج الى دفء أحضانك في هذا البرد الشديد لكن لا بأس فقد أحضرت معي معطفي الأسود الذي اختلط لونه مع ظلمة الشارع الخال من الانس تماما. قطع تفكيري صوت سيارة مسرعة تتجه نحوي لم أعلم حتى من أين ظهرت. حينها لم أدر ما أفعل لأن الخوف سمر قدمي في مكانهما مما جعل السيارة تصطدم بي مباشرة.

* * *

(مستشفى أدرار)

بدأ وعيي يعود إلي رويدا رويدا لأجد نفسي في غرفة بيضاء تحوي سريرا حديديا وآلات تخرج منها أنابيب لترسخ في شراييني، وشيء يشبه القناع موضوع على فمي، وسكون يجتاح الغرفة إلا من صوت خافت لرجلين قادم من خارج الغرفة واصلا إلى أذني واضحا، بسبب سمعي القوي استطعت الاصغاء الى حوارهما:

-الرجل: هل هو بخير يا سيادة الطبيب؟

-الطبيب: هو بخير ولكن العجيب في الأمر أنه لم يصب بأي جرح رغم تعرضه لحادث سيارة.

-الرجل: إذن هل يمكنني أخذه معي إلى البيت ليستريح ومن ثم سأبحث عن أهله وأعيده اليهم؟

-الطبيب: لا ، سيبقى هنا أياما أخرى.

-الرجل: ألم تقل انه لم يصب بأي جرح! فلماذا تريد إبقاءه.

-الطبيب: لا نعرف بعد هل هناك مضاعفات نفسية للصدمة التي تعرض لها في الحادث أمس أم لا. لذلك علينا التريث الى أن يستعيد وعيه.

-انتهى حوارهما وقد فهمت منه شيئا واحدا وهو أنني تعرضت لحادث بالأمس ولم أصب بجرح، حاولت تذكر شيء من حادث أمس ولكن ذكرياتي كانت قد رحلت تماما مع شيء آخر رحل معها. فجأة فُتح باب الغرفة ودخل منه رجل متوسط الطول عريض البطن طويل الشارب قليلا، يرتدي مئزرا أبيضا ونظارة طبية وبطاقة معلقة على عنقه جعلتني أتبين أنه نفس الطبيب الذي كان يتحدث خارج الغرفة، كان شاربه يبدو غريبا مائلا قليلا. نظرت إليه نظرة فارغة فقابلني بابتسامة مصطنعة، اقترب ليجلس على كرسي كان قرب السرير، أخذ نفسا عميقا ثم قال:

-الطبيب: هل تشعر بتحسن؟

-أنا: هل كنت في حال سيئة لأتحسن؟

-الطبيب: لقد أصبت بحادث ليلة أمس على بعد 230 كلم من هذا المكان وأحضرك فاعل خير إلى هنا.
-أنا: حقا، لا أتذكر شيئا.
-الطبيب: حسنا. وهل تعرف أين تسكن أو من هو والدك؟
-أنا: لا. لا أتذكر.
-الطبيب: سأدعك تستريح الآن لعلك تتذكر شيئا.
-أنا: انتظر يا سيدي. هل لي بسؤالك؟
-الطبيب: بالطبع. تفضل.
-أنا: منذ متى وأنت تعمل هنا؟
-الطبيب: (بدا عليه التوتر قليلا) منذ 10 سنوات. لكن لماذا تسأل؟
-أنا: لا شيء. مجرد سؤال عابر.
-الطبيب: لا بأس. استرح الآن وفي اللّيل سيأتي من أوصلك بالأمس ليأخذك.

* * *

الجيش العسكري -مصر-

قبل يومين من حادثة السيارة.
مكتب متوسط الحجم به خزانة كبيرة تصطف فيها الأوراق بانتظام وكأنها ملابس تحدث الناظر إليها عن هيبة صاحبها. وطاولة واسعة موضوعة في ثلث المستطيل وقُربها كرسي يجلس عليه ضابط وهو شاب في التاسعة والثلاثين من عمره مفتول العضلات حاد العينين كالصقر ووسيم الوجه، يدقق في أوراق موضوعة بجانبه وكوب قهوة يرتشف منه كل دقيقة رشفة ليعقل تركيزه كلما حاول الإفلات منه، إلا أن دقات خفيفة في الباب

قطعت تفكيره وكشفت عن صوت خشن يطرد الصمت قائلا "تفضل بالدخول"، تحرك مقبض الباب ليظهر من خلفه رجل نحيف قليلا يبدو على ملامحه خبث خفي، إنه مساعده الذي يأتيه بآخر الأخبار والمستجدات دون أي تأخر. أدى التحية العسكرية ولكن هذه المرة كان متوترا وتأخر في الكلام وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة، أخذ نفسا عميقا ليريح ذهنه قليلا ثم قال:

-المساعد: صباح الخير يا سيدي.

-الضابط: صباح النور. يبدو عليك التوتر، خيرا إن شاء الله.

-المساعد: هل تتذكر تلك الرسالة التي وجدتها على مكتبك قبل عام؟

-الضابط: تلك التي كان فيها تهديد موجه إلي، ما بها؟

-المساعد: وجدت رسالة أخرى قرب مكتبك في الصباح.

-الضابط : أين هي؟

-يدخل المساعد يده الى جيبه بحذر وكأنه يتحاشى أن تتمزق الورقة، أخرجها وأعطاها للضابط الذي بدأ القلق يتسلل إلى قلبه وتبعها بكلمات متحشرجة متقطعة ((ها.. ها هي يا سيدي)) تناولها عنه وبدأ يفتحها ببطء ليظهر ذلك الحبر الأسود المتناثر على البياض بشكل كلمات تقول للأعين ((عليك تخطي الحدود)).

-الضابط: هذه الرسالة مختلفة عن السابقة. وكأن أحدهم يرشدني لأصل الى صاحب الرسالة الاولى ((خطوة واحدة للأمام قادرة على انهاء أمرك)).

-المساعد: ربما يا سيدي ولكن الأهم أن هناك فتى في الخارج يريد لقاءك.

-الضابط: دعه يدخل.

خرج المساعد بعدما أدى التحية العسكرية واتجه نحو الشاب الواقف في آخر الرواق ينتظر، نظر إلى هذا الأخير بتكبر وقال له دون أن يعطيه أية قيمة: ((الضابط في انتظارك، لكن أنصحك بالمغادرة لكي تحفظ ماء وجهك)). ارتعب الشاب وتشكلت بعض حبات العرق على جبينه وأراد أن يظهر الشجاعة فبادره بالكلام

قائلا ((أنا عازم على قراري ولن يخيفني شيء)). رفع المساعد كتفيه معبرا عن لامبالاته ورحل في صمت.
دق باب المكتب مجددا وبإشارة من الضابط فتح الباب ليكشف عن وجه جميل لشاب في العشرين يخيل اليك أنه فتاة من شدة جماله، شعر لحيته مختف بشكل غريب كأنه أمرد، وشعر رأسه مربوط على شكل حبل متدل خلف ظهره وذو بنية ضعيفة. ألقى التحية فبادره الضابط بإذن الجلوس وقال له ((مرحبا بك في مقرنا. أخبرني مساعدي أنك تريد الانضمام الى الكتيبة)).
ظهرت على الشاب علامات الجدية لأول مرة وبدأ ينسج خيوط الحوار ((نعم أريد أن أخدم وطني)).
أخذ الضابط نفسا ثم أخرجه مطأطأ رأسه ويقول بحزن مبتدع ((أنا آسف يا بني ولكننا لن نستطيع قبولك)). تفاجئ الآخر بهذا الرد السريع ورد عليه ((هل لي أن أعرف السبب)).
-الضابط: لأنك لست مؤهلا لهذا.
-الشاب: كيف علمت يا سيدي أني لست مؤهلا ونحن بالكاد التقينا؟
-الضابط: صدقني، أراهن أنك لن تصمد يوما واحدا بهذا الجسد النحيل والوجه الأملس. أنصحك بالعدول عن هدفك هذا لأن الأمر قد يصل إلى اغتصابك حتى.
-الشاب: هل هذه اهانة ام ماذا؟ سأتدبر أمري بالتأكيد ولن يصيبني أي شيء.
-الضابط: لا، لن تستطيع الصمود، هذا عملي وأنا أعرف من يستطيع ومن لا يستطيع.
-الشاب: حسنا. إن كان الأمر هكذا فأنا أعتذر لإضاعة وقتك.
نفض الشاب نفسه من فوق الكرسي مؤديا تلك التحية المملة وغادر مغلقا خلفه الباب ليجد المساعد قادم باتجاهه. وصل إليه وكادت أنفاسهما أن تلتقي، فقال هذا الأخير ((ألم أطلب منك أن تحفظ ماء وجهك. أظن أن مكانك الأنسب ليس هنا بل في التيك توك)).

تحاشى الشاب الرد عليه برغم هذه الإهانة ورحل غاضبا.

* * *

((من مقر المخابرات الجزائرية))

قبل يوم من حادثة السيارة:
صالة واسعة أبعادها تسعة ضرب عشرة، تحتوي على حواسيب عدة وأمام كل حاسوب شخص يضغط باستمرار على لوحة المفاتيح التي أمامه وبين كل هؤلاء يقف شاب بشعر أملس ليس بالجميل ولا بالقبيح، لا بالطويل ولا القصير، ولحية تغطي الذقن وبزة رسمية كأنه خلق لها، وساعة في معصمه الأيسر لا تمر خمس دقائق إلا ونظر لها. يلقي الأوامر على الجالسين فينفذوها على الفور. هل تريد أن تعرف من هو؟ حسنا، الأمر أشبه بكشف سرٍ من أسرار الدولة. لأن هؤلاء بكل بساطة يحمون الوطن في الخفاء من أي تطفل خارجي. أظنك عرفتهم الآن. أما رئيسهم الواقف هناك فلا أحد يعرف هويته ولا حتى أنا فلا تسألني.
بينما الجميع منهمك في العمل. رنّ هاتف أحدهم، توقفت معه أصوات الضغط على (الكيبورد) وأدار الجميع رؤوسهم بحثا عن صاحب الهاتف، لكن لم يتوقع أحد أنه سيكون هاتف الرئيس. هم مجبرون على غلق هواتفهم طيلة مدة العمل لتجنب أي إزعاج لأن عملهم سري جدا. أما ألا يحترم الرئيس الأوامر فهذا أمر جلل. بادر بإدخال يده في جيبه ويداه ترتعشان لأنه متأكد أنه أغلق هاتفه. أخرج هاتفه ونظر للمتصل فإذا به صديقه الذي تعرف عليه في الفيس بوك منذ طفولته لكن الاتصال انقطع بينهما منذ عام. أشار بيده للمحدقين به أن يكملوا عملهم. تنهد قليلا ثم رد على الاتصال وبصوت منخفض أضاف اليه نكهة نائمة ثم قال:
-الرئيس: كيف الحال؟

-المتصل: ههه لقد نجحنا.. أ.. أقصد... اهلا صديقي.
-الرئيس: ماذا تقصد بـ (لقد نجحنا)؟ رغم أني استيقظت للتو إلا أنني قد سمعتك بوضوح.
-المتصل: أتتذكر ذاك المشروع الذي أخبرتك عنه؟
-الرئيس: تقصد جعل شريحة الاتصال مستقلة عن الهاتف!
-المتصل: بالضبط. عملنا في المشروع عاما كاملا وها أنت ذا أول تجربة.
-الرئيس: مبارك عليك. هذه قفزة تكنولوجية ستخلد اسمك في التاريخ.
- المتصل: لا. أريد منك طلبا.
-الرئيس: ما هو؟
-المتصل: أن تبقي هذا المشروع سرّا. أحسُّ أن هذا الاختراع سينفعني أكثر لو بقي سرا.
-الرئيس: أنا موافق، لكن بشرط.
-المتصل: تفضل.
-الرئيس: كنت أود الاتصال بك اليوم لأخبرك أن هناك شخص ما سأرسله لك ويجب عليك أن تشرف على تدريبه بنفسك.
-المتصل: متى؟
-الرئيس: لا يهم أن تعلم الآن، ستعرف بنفسك حين يحين الوقت.
قطع الرئيس الاتصال، نزع غطاء الهاتف وسحب الشريحة بحركة سريعة وأدخلها في جيبه.
-تقدم نائبه نحوه وعلى وجهه عشرات الأسئلة: "ما الأمر يا سيدي؟"
تنهد الرئيس ثم نظر لنائبه الذي لازال يحدق به قائلا: (لا شيء، نسيت هاتفي شغالا فاتصلت بي أمي تسألني عن أحوال الشركة وعملي لا غير)

* * *

عندما قال لي الطبيب أن هناك من سيأتي ويأخذني راودني إحساس غريب بأن هناك خطأ ما، فقد قال للرجل الواقف خارج الغرفة أنني سأبقى هنا بضعة أيام فلماذا غيّر كلامه بهذه السرعة؟ الأمر مقلق حقا، يجب أن أفعل شيئا ما فورا، أمسكت بتلك الأنابيب المملوءة بالأدوية بكلتا يداي واستجمعت قواي فاستجاب لي جسدي بصعوبة (الحمد لله أنني لست من أصحاب السمنة وإلا كنت الآن في موقف لا أحسد عليه). غادرت السرير متجها الى الباب، فتحته بحذر واطلعت على الرواق علّ أحدهم قادم فينكشف أمري. ياله من رواق طويل لكن الجيد أن لا أحد في الجوار، أستطيع التحرك الآن.

* * *

"مكان سري في منطقة آراك بتمنراست "

غرفة واسعة تحت الأرض مجهزة بشتى الوسائل من حواسيب واختراعات حديثة كجهاز تعقب المواقع وجهاز تجسس. تشبه الغرفة مقر الاستخبارات إلا أنها أكبر. ولا ننسى أيضا الرجال المجتمعين في منتصفها كالأطفال الذين كانوا يضربون العباس على رأسه. كأنهم قلقون من أمر ما ويريدون الوصول إلى حل، فكلما اقترح أحدهم حلا لا يعجب البقية، حتى قال أغباهم: "ما رأيكم أن يذهب أحدنا خلف الزعيم". فجاءته الردود غاضبة: (ألم نقل أنه سيغضب إن علم بالأمر). ووسط هذا الهدوء دخلت فتاة مسرعة والتعب قد نال منها بسبب الركض. تقول كلمة ثم تسحب ما يكفي من الهواء لتقول الأخرى:(لقد... ذهبت... تلك... الفتاة... الغريبة... خلف الزعيم...) تعالت صدور الواقفين فزعا من الكلام الذي سمعوه توا، لو علم الزعيم بالأمر سيعاقبون جميعا. عزموا أمرهم، سيذهب ثلاثة منهم خلف تلك الفتاة ليعيدوها.

* * *

مررت في الرواق مسرعا إلا أن صوت خطواتٍ جعلني أتوقف وأدخل باب غرفة مظلمة كان مفتوحا. بدأ الصوت يقترب أكثر فأكثر ليكشف عن امرأة ذات ملامح صارمة وبنية متينة ولباس علمت منه أنها ممرضة. كانت تحمل أوراقا وتتمعن فيها كتلميذ أخطأ أستاذه في تصحيح ورقته. لكن ممرضة اخرى قطعت تفكيرها قائلة: يا **نهال**، إن الدكتور **صابر** يريدك في مكتبه حالا. فردت: حسنا سأذهب على الفور. لفت انتباهي اسم الدكتور فهو نفس الاسم الذي كان مكتوباعلى البطاقة المعلقة على عنق الدكتور الذي تابع حالتي. لا يهم، علي الذهاب الآن قبل أن يكتشفوا غيابي.

* * *

الدكتور صابر جالس في مكتبه وتبدو عليه ملامح الانتصار يحمل أوراقا موضوعة أمامه، وكوب القهوة الذي رسم على سطحه خطوط من الهباء المتراكم تكاد لا ترى بالعين المجردة موضوع على حافة الطاولة، ليضفي على الجو بعض الاهتمام.
دقات خفيفة على الباب قاطعها الدكتور بكلمة "تفضل"، أديرت قبضة الباب ودخلت الممرضة نهال وعلى ملامحها بعض التوتر.
-الدكتور: أهلا مساعدة نهال.
-نهال: صباح الخير دكتور صابر. لقد أخبروني أنك استدعيتني إلى مكتبك فأتيت مسرعة. خيرا!
-الدكتو: تفضلي اجلسي أولا.(تجلس نهال على الكرسي الذي أمام الدكتور) أريد منك أن تشرفي على المريض في الغرفة سبعة وعشرون. سنقوم بتمثيل مسرحية لننزع الشكوك ثم سننفذ الخطة المتفق عليها.

* * *

اليوم في مدرستي يوم عادي ككل يوم. لم يسأل عني أحد سوى ذلك المعلم الذي يهمه تسجيل الغيابات لا غير، وأولئك الحمقى الذين يضربونني ليضحكوا بعضهم. حتى في منزلي ظنوا أنني ذهبت الى المدرسة باكرا لأتجنب حادثة الأمس. هكذا أنا لست مهما لأحد، حتى ابنة خالي التي تكبرني بعام لا تستطيع فعل شيء حيال الاساءات التي أتلقاها كل يوم، بالطبع لأنها فتاة، أو ربما لأنها تعدني قالبا طينيا لا غير.
انتهى الدوام وابنة خالي متجهة نحو بيتنا على غير العادة، مهرولة وبأنفاس متقطعة تطرق الباب فتفتح لها أمي بوجه بشوش:
-أمي: أهلا بك يا زهرة. خيرا! لماذا أتيت راكضة؟
-زهرة: أتيت لأعزيك في العباس بعد ما حصل له بالأمس فقد كنت مشغولة ولم أستطع القدوم.
"أتعلمون شيئا؟ لو أنها أتت للعزاء بالأمس لخف ألمي ولكنت علمت أن هناك من يهتم لأمري دون أمي ولربما لم يحصل ما حصل".
-أمي: شكرا لاهتمامك. سأوصل له عزاءك بمجرد أن يعود من المدرسة.
-زهرة: ماذا؟ لم يحضر الى المدرسة اليوم أصلا.
-أمي: (زاد خفقان قلبها فجأة) هل أنت متأكدة؟ ربما أنت لم تريه.
-زهرة: لا. سألت عنه وقالوا لي أنه لم يحضر.
-أمي: (بنبرة أشبه بالبكاء). أحس أن مكروها قد حدث لولدي.
-زهرة: لا تقلقي يا عمة. سأخبر أبي فسكان الحي يحبونه وسيساعدوننا في البحث عنه.

* * *

تسللت ببطء من رواق إلى رواق رغم أني لم أكن أعلم طريق الخروج من أين، إلا أنني كنت أستعمل حدسي، وابتسم لي الحظ

في النهاية لأجد نفسي في طريق مليئة بالسيارات المسرعة والأصوات العالية التي سببت لي صداعا مزعجا، لكن الآن ليس وقت النحيب فعلي الابتعاد قدر المستطاع. اخترت قارعة الطريق طريقا لي وسويت ظهري وعدّلت مشيتي حتى لا يقال إني مجنون. مشيت مقدار ساعة متنقلا عبر الأزقة حتى اختلطت علي الأماكن وأحسست بنشوة الأمان، نشوة لم تدم لأنني أفكر كيف سأعود لبيتي وأين أسكن أصلا. ثم جاءتني فكرة أن أسأل المارة، رحت أسأل كل من التقيه سؤالا غريبا، لعلك ستبدي انطباعا عجيبا إن سألك أحدهم إياه: "من أنا؟" (ربما ستجد صعوبة في الإجابة عنه لو أنك طرحته على نفسك فكيف لو طرحه عليك أحدهم ههه. لا تتعمق، أعلم أن الأمر مختلف). سألت ما يقارب العشرين شخصا وكانت تتكرر نفس الملامح على وجوههم ونفس الكلمتين على ألسنتهم "لا أعلم". فقدت الأمل تقريبا إلى أن لمحت فتاة تتجه صوبي من بعيد. أطول مني بـعشرة سنتيمترات تقريبا، ذات بنية ضعيفة ووجه أسمر جميل. لحظات تمر وأعيننا تقابل بعضها وأجسادنا تقترب من بعضها حتى أصبحت المسافة بيننا مترا. نطق ثغرها قائلا: "لقد سمعت من أحد المارة أنك كنت تسأل من أنت، يبدو أنك مجنون أو فاقد للذاكرة" فقلت والتوتر باد علي لأنني لست معتادا على التحدث مع الفتيات: "أختار الثانية" وكانت هذه بداية الحوار الذي دار بيننا:

-الفتاة: حسنا. أنا أعرفك ويمكنني مساعدتك.

-أنا: حقا! كيف تعرفينني؟

-الفتاة: من مجموعة فلسفة مريض نفسي. صدقني سأساعدك.

-أنا: فلنفترض أنني وثقت بك. إلى أين سنذهب؟

-الفتاة: قلت لك أني أعرفك من الفيسبوك (أدخلت يدها في جيبها وأخرجت هاتفا. شغّلت بيانات الجوال وبضغطة زر دخلت صفحتي) خذ وانظر، هذه صورتك وفي الأسفل قليلا ستجد عنوانك، سنذهب إلى هناك.

-أنا: حسنا. انا موافق.

-ونحن في طريقنا الى المحطة تبادلنا أطراف الحديث، أخبرتني أن اسمها "ابتسام" الذي كان لها نصيب منه فقد جعلتني أبتسم حقا.

* * *

"العباس" "العباس". هكذا كانت أصوات أهل مدينتي تتعالى وهم يبحثون عني في الشوارع والأزقة لكن دون جدوى، كان يتقدم هذا الحشد خالي بعدما أخبرته ابنته بضياعي. توقفت خطواته عن التقدم فتوقف الناس من خلفه، أدار وجهه إليهم قائلا: "الذي يحدث لابن أختي الآن كله بسبب أولادكم." بدا على وجوههم قليل من الغيظ ثم تقدم أحدهم فقال: لقد تأخر الوقت، سنعود غدا لإكمال البحث. تشتت الناس كل واحد إلى بيته، لكن خالي أراد مواصلة البحث بمفرده فأوقفته ابنته لأن الكلاب تكثر في هذا الوقت المتأخر من الليل (لو لم تصدمني السيارة لكنت واجهت الأمرّ). رضخ والدها لكلامها وعادا لبيتهما.

(في اليوم الموالي)

الضجة كبيرة اليوم على غير العادة في المدرسة بسبب اختفائي، الجميع متفاجئ ومئات الأسئلة تدور في الوسط (هل خطف؟ أم تاه في مكان ما؟) وبين كل هذا لازال أولئك الأطفال يضحكون علي ويتذكرون ما فعلوه بي.

***

-نهال: أيها الدكتور! أيها الدكتور! لقد اختفى المريض.
-الدكتور: ماذا تقصدين ب اختفى؟
-نهال: ذهبت لغرفته فلم أجده.
-الدكتور: أخبري الشرطة بضياع مريض، وابحثوا أنتم في جميع الغرف.

-انغمسوا وقتا طويلا في البحث وقلبوا المستشفى رأسا على عقب ولكن لم يجدوا شيئا، ولن يجدوا، لأني كنت قد ابتعدت كثيرا.
-الدكتور: (لنهال) اذهبي وابحثي في جميع أنحاء المشفى. يجب أن نجده والا سنكون في خبر كان.

* * *

دخلنا إلى المحطة وحجزت ابتسام تذكرتين وأردت رؤيتهما الا أنها أخفتهما عني، لكن لا بأس. لا يهم مادام أنها دفعت ثمنهما. اتجهنا صوب الحافلة والغريب أنني وجدت مكتوبا عليها "تمنراست" وليس "أولف"، حين سألتها قالت لي أنها تقع على نفس الخط. ما إن وضعت ابتسام قدمها على درج الحافلة حتى اخترقت رصاصة (رأسها) وأردتها ترابا. صاح الناس فزعين وأنا هربت خارجا من المحطة. لابد أنها ماتت بسببي وأنني أنا الهدف التالي.
-ركضت حتى انقطعت أنفاسي ووجدت نفسي في رواق واسع وكان هذا اخر ما رأيته قبل أن أسقط مغشيا علي.

* * *

مر شهر على غيابي وكانت عائلتي قد قلبت الدنيا بحثا عني لكن دون جدوى. بكاء أمي يجوب البيت وخالي جالس بجانبها يواسيها لكن جرح فراق الابن أعمق من أن يردم بكلمات مواساة. رنّ هاتف المنزل على غفلة فانتفضت أمي كالوحش متجهة إليه لعل أحدهم قد وجد العباس. رفعت سماعة الهاتف بيدين هزيلتين:
-أمي: آ ... آلو.
-المتصل: لقد وجدنا جثة مشوهة مرمية في رف أدرار يحتمل أن تكون للعباس.
-هنا سقطت الأم مغشيا عليها وقبل أن تقع أسرع أخوها إليها ليمسكها.
-المتصل: آلو آلو. هل من أحد على الخط.

رفع خالي السماعة.

-خالي: ماذا حصل. معك خال المفقود.

-المتصل: وجدنا جثة يحتمل أن تكون للمفقود ونريدكم أن تتواجدوا في الموقع حالا، نحن الآن في مصلحة حفظ الجثث بأدرار.

-توجه الخال مع ابنته زهرة إلى الموقع، فرغم أنه رفض أن يأخذها معه لكن جملة قالتها(لو كانت الجثة للعباس فأريد أن أكون أول من أراه) جعلته يغير قراره.

-وصلوا إلى مصلحة حفظ الجثث فأدخلوهما لغرفة باردة تحتوي على أدراج كبيرة، في كل درج جثة راقدة. الجثة في الدرج السابع. فتح العامل الدرج فأصيب الخال وابنته بدوار لأن الجثة كانت ممزقة كثيرا فصعب عليهم معرفة اذا كانت للعباس أم لا. بدأت زهرة تتمعن فيها قليلا ثم لمحت خيطا برتقاليا مربوطا في الابهام فوقعت باكية على الأرض.

***

عجّ المستشفى بالشرطة فقد فتحوا تحقيقا في قضية اختفاء مريض وطلبوا كل الأطباء الذين كانوا في موقع الحادث وقد كان على رأسهم الدكتور صابر.

-المحقق: اشرح لنا ماذا حصل بالتفصيل بصفتك الدكتور المعني بالمريض.

-صابر: حصلت حادثة على بعد 230 كلم من هنا وقد كان طفلا في الرابعة عشر صدمته سيارة وأتى به فاعل خير إلى هنا.

الفصل الثاني

" بداية حياة جديدة "

فتحت عيني بعد جهد طويل وإذا برجل يرتدي زي الضباط جالس بقربي:
-أنا: أين أنا؟
-الضابط: أنت في مكان لا يسمح لك فيه بطرح الأسئلة. هناك لبسة عسكرية في الخزانة التي أمامك، البسها ولاقني في الباحة.
-أنا: أي باحة؟
-الضابط: يمكنك رؤيتها من النوافذ.
-نظرت من النافذة فأرعبني المشهد، كان هناك جنود منظمون كأنهم جيش من النمل. خرجت من الغرفة بعد أن لبست الزي العسكري ووقفت في الأخير وإذا بذلك الضابط يصعد المنصة وبصوت تملأه الشجاعة والصرامة خطب في الجمع قائلا: "يا جنودنا الشجعان حللتم أهلا. أعرفكم على نفسي، أنا الضابط خالد قائد هذه الثكنة وسأشرف على تدريبكم بنفسي. لست سهلا فلا تنتظروا مني الرحمة. أظن أن لا أحد منكم أتى هنا مجبرا، فأرجو أن تتحملوا المسؤولية ". جملته الأخيرة جعلت داخلي يضحك لأن لا أحد سألني عن رأيي أصلا.
ذهبنا إلى مركز التدريب وكاد أن يغشى علي من التعب. عندما انتهينا أخذونا إلى المراقد كي ننام وهناك انتبه لي أحد المشاغبين وبدأ بالسخرية من شكلي وانتبه أصدقائه أيضا وراقهم الأمر كثيرا. تطورت السخرية إلى ضرب على الرأس (هذا الموقف بدا لي مألوفا كثيرا) سمعت صوتا لشاب يقول "توقفوا أيها الأوغاد" وهنا هرع الجنود إلى أسِرَّتهم وكأن شيئا لم يحدث. اقترب مني وقال: "هل أنت بخير؟" صوته كأنه ماء أطفأ نار قلبي. كان طويلا قليلا وبنيته قوية ترعب الأعداء وعيناه زرقاوان. أجبته: "نعم. لا بأس بي". صرخ في الجنود قائلا: "هذا الجندي له قيمة خاصة عندي، ومن يتجرأ على لمسه سيطرد من المعسكر" ثم التفت إلي مجددا وقال:" أنا النائب الثاني للضابط الذي رأيته في الصباح واسمي باسم، إذا احتجت لشيء ستجدني في الغرفة 78".

* * *

لعل هذه هي المرة الأولى التي تبكي فيها زهرة منذ أن بلغت الثالثة عشر، رأت ذلك الخيط الذي لطالما كان يضعه العباس في إصبعه. أمسكت يده باكية وقالت في داخلها: "سامحني بحقك"
*وصل الخبر لـ "أولف" كالصاعقة لكنه لم يؤثر بأحد، بالعكس، فقد وجدوا الخبر راحة من البحث المتواصل طيلة شهر. إلا أمي ارتفع ضغط دمها ودخلت في غيبوبة لم تستيقظ منها بعدها. مرّ شهر على فقداني ولم يتغير شيء، الأطفال اشتاقوا لذاك المشوه لأنهم كانوا يستمتعون بضربه، أخي لم يندم على شيء وكأن لا يد له فيما حصل لي، زهرة لازالت تبكي كلما تذكرتني وأصبحت تدعو لي في صلاتها بأن يتغمدني الله برحمته، أبي كان في سفر لمدة شهرين وبعد أن سمع بالحادث أتى مسرعا، أمي لا تزال في المستشفى لم تستفق من غيبوبتها بعد، وأنا الآن ميت في نظر سكان بلدتي والحقيقة أنني لا أعرف أين أنا حتى.

* * *

مرت الأيام واعتدت على تلك التدريبات الشاقة وأصبح باسم يأتي إلي كثيرا ليسألني عن حالي وأنا دائما كنت أكتفي بالإجابة فقط، لطالما أردت إجابات لأسئلتي الكثيرة (أين أنا؟ وفي أي شهر نحن؟...) اليوم قررت أن أتجرأ وأسأل باسم، وفعلا منحني الله الشجاعة، حينها وبصوت متوتر قطعت أسئلته:
-أنا: عذرا. أين أنا الآن؟
-باسم: نحن في مصر في احدى مقرات التدريب.
-أنا: م.. ما... ماذا؟ هل أنت تمزح؟ لقد كنت في الجزائر فكيف وصلت إلى مصر؟
-باسم: وجدتك مرميا في (رڤ) فأتيت بك إلى هنا.
-أنا: وماذا كنت تفعل في الجزائر وأنت مصري؟

-باسم: كنت في عطلة وذهبت في زيارة إلى جدتي.
-أنا: أريد العودة إلى منزلي فهلاّ تساعدني.
-باسم: وهل تعرف منزلك أين يقع بالضبط؟ لا أظن أن الرف كان منزلك.
-أنا: في الحقيقة تعرضت لحادث سيارة وفقدت ذاكرتي.
-باسم: هل رأيت! لا يمكنني مساعدتك لأن المعسكر إجباري ولا يمكن لأحد المغادرة قبل انقضاء المدة.
-أنا: أي مدة تقصد؟
-باسم: مدة التدريب وهي عام كامل.
- أنا: حسنا سأصبر، لكن عندما ينتهي العام ساعدني لأجد عائلتي.
-باسم: لكن، ما السبب الذي جعلك تخرج من منزلك لتصدمك تلك السيارة.
-أنا: لا أتذكر شيئا. ربما سأتذكر ان عدت الى منزلي.

* * *

منطقة آراك (تمنراست)

صمت رهيب يخيم على المكان والتوتر في أشده.
عاد الرجال الثلاثة الذين ذهبوا خلف الفتاة والإحباط على وجوههم، انقشع الصمت وبدأت الأسئلة تنهال عليهم (أين الفتاة؟ماذا حصل؟ ...)
-الرجال الثلاثة: لم نجد لها أثرا. فتشنا أدرار شبرًا شبرًا ولم نجد شيئا.
-رجل: سيغضب الزعيم كثيرا إن علم بالأمر.
-الزعيم: على ماذا سأغضب؟
-إنقطعت الأصوات وابتلع الكل لسانه من الدهشة.
-الرجل: الز.. ز.. زعيم. متى أتيت إلى هنا؟
-الزعيم: لم تجب على سؤالي.

-الرجل: (ابتلع ريقه بصعوبة) الفتاة الجديدة ذهبت خلفك و...
-قاطعه الزعيم بصفعة على وجهه.
-الزعيم: ما الذي كنتم تفعلونه عندما ذهبت؟ أين عيونكم؟ ألم أقل لكم أن تبقوا المهمة سرية.
-الرجل: آسفون أيها الزعيم، لن يتكرر هذا مجددا.
-الزعيم: عودوا إلى حواسيبكم وابحثوا لي عن ذلك الفتى. اخترقوا نظام التجسس الأمريكي.
-الرجل: لكنه معقد يا سيدي ولم يستطع أي منا اختراقه طيلة هذه السنوات.
-الزعيم: اذن استعملوا أحد الأقمار الصناعية، جدوه بسرعة.

* * *

مضت سبعة أشهر على الحادث ولازالت أمي في غيبوبتها لم تستفق. كثير من حالات الاختطاف والقتل تحدث يوميا حول العالم وقليل هن الأمهات اللواتي يصبن بصدمة كالتي أصابت أمي، ربما لأنها كانت تحبني أكثر من أي شيء، يالسخف، لو كانت تحبني بهذا القدر لشعرت بحبها تجاهي.
لازال أبي جالسا بجانبها، يوما بعد يوم ولازال ينتظرها استيقاظها، لم أظن يوما أن أبي يحمل هذا القلب العطوف.
سبعة أشهر مضت ونسي الكل ما حدث، صدق من قال: "لو علمت الطريقة التي سينساك بها الناس بعد موتك لترفعت عن رضى الناس وطلبت رضى الله الذي ستذهب إليه في النهاية"

* * *

-أنا: لقد اعتدت على هذه التدريبات حتى أنني صرت الأول في الدفعة من ناحية الأداء، ورغم هذا لازال الجنود يسخرون من شكلي ويضحكون عليّ.

-باسم: هذا أمر طبيعي لأنهم يشعرون بالغيرة فيحاولون إقناع أنفسهم بأنهم أفضل منك.
-أنا: اا... حسنا. تبقت خمسة أشهر.
-باسم: في أي سنة نحن الآن؟
-أنا: 2015 م.
- باسم: وفي أي شهر؟
- أنا: أكتوبر.
- باسم: في هذا الشهر أكمل الرابعة والعشرون وأنت؟
- أنا: أنا في الرابعة عشر.
- باسم: الرابعة عشر! لا يعقل. أصغر جندي هنا عمره عشرون سنة، لقد تفوقت على من يكبرونك بست سنوات.
-"خيم الصمت على المكان"
-باسم: ما بك شارد الذهن؟
-أنا: لقد أخبرتك أنني في الرابعة عشر، أنا فاقد للذاكرة فكيف تذكرتُ تاريخ ميلادي؟
-باسم: هذا يعني أنك فاقد لجزء من ذاكرتك وليس كلها هذا جيد.
-أنا: ما الجيد في الأمر؟
-باسم: ما دمت تتذكر شيئا فيعني أن العودة لمنزلك ستكون سهلة.
(في هذه الأثناء دخل جندي الى الغرفة وقال):
-الرجل: باسم، الضابط يريدك في مكتبه فورا.
-باسم: أنا قادم. (التفت إليّ وقال) عادة يستغرق الأمر ساعة، عدّ الغرفة غرفتك.
-أنا: حسنا.
(من مكتب الضابط):
-الضابط: هل تتذكر يا باسم تلك الرسالة الأخيرة قبل ثمانية أشهر؟
-باسم: تقصد: "عليك تخطي الحدود"!

-الضابط: نعم، تلك هي، أتتني اليوم رسالة أخرى أظن أن مرسلهما واحد. كانت مكتوبة بالدم: "مفتاح نجاحك الآن بين يديك فأحسن استغلاله" وقد وجدتها فوق مكتبي.
-باسم: انها حقا بلا شك من نفس المرسل، لكن يا سيدي كيف وجدت هاتين الرسالتين فوق مكتبك رغم أن الحراسة مشددة جدا.
-الضابط: هذا ما يحيرني أكثر.
-باسم: وأيضا يا سيدي أريد سؤالك في أمر.
-الضابط: تفضل، المهم ألا يكون شيئا سخيفا كعادتك.
-باسم: كم مرّ على العباس وهو هنا؟ لأنه قال لي أنه قضى سبعة أشهر وأنت قلت لي ثمانية أشهر وكما تعرف فأنا لا أجيد الحساب البتة.
-الضابط: ههه الرسالة أتتني قبل ثمانية أشهر وهو الشهر الذي وجدت فيه العباس، وبما أنه قضى تقريبا شهرا وهو غائب عن الوعي فهو يظنها سبعة أشهر فقط.
-باسم: اذن فنحن في نوفمبر وليس في أكتوبر.
-الضابط: بل في ديسمبر.
-باسم: اعتقدت أنني حسبت جيدا هذه المرة.
-الضابط: أمزح معك فقط. نحن في نوفمبر.
-باسم: العباس أخبرني أننا في أكتوبر وبما أنه أنقص شهرا فنحن في نوفمبر.
-الضابط: أرعبتني لوهلة، ظننتك تعلمت الحساب.
-باسم: ههه. "بعيد الشر أأقصد الخير".
عم الضحك المكان.
-الضابط: يمكنك الذهاب الآن وإن وجدت أي شيء في موضوع الرسائل أخبرني.
-باسم: (يؤدي التحية العسكرية) حاضر.

* * *

قبل ثمانية أشهر

(من مقر المخابرات الجزائرية)

-العميل: سيدي. لقد رصدنا نشاطا مشبوها في ولاية أدرار.

-الرئيس: اقرأ لي التقرير لنرى.

-العميل: تم رصد جريمة قتل في ولاية أدرار، الضحية فتاة تبلغ من العمر 26 سنة أصيبت بطلق ناري. هذا حسب ما أدلى به شهود العيان ولكن قوات الأمن لم تعثر على الجثة.

-الرئيس: واضح أن القاتل قد أخذها ليخفي الأدلة.

-العميل: لكن يا سيدي كيف سيتمكن من أخذ الجثة على مرأى من ذاك الحشد كله.

-الرئيس: عندما يصاب الناس بالفزع تعمى أعينهم. أعطني تفصيلا أكثر عن الحادث لربما كان المجرم من عصابة BM

-العميل: حاضر سيدي، سيكون التقرير جاهزا غدا.

(يعود العميل لكرسيه ويقترب النائب من الرئيس يهمس له)

-النائب: مالذي ستجنيه تلك العصابة من قتل مواطنة عادية.

-الرئيس: سنعلم الحقيقة عما قريب، تلك العصابة خطر ليس على الجزائر فقط بل على مستوى الوطن العربي، ثلاث سنوات ولم نستطع إيجاد مركزهم حتى الآن. سأذهب للمنزل الآن أكملوا عملكم.

-الرجال: أمرك سيدي.

بعد ثمانية أشهر:

يخرج الرئيس من العمل بعد يوم شاق ويدخل شريحته في الهاتف فيرن مباشرة.

-المتصل: أهلا صديقي. هل اشتقت إليّ.

-الرئيس: مرت ثمانية أشهر عن آخر اتصال بيننا، ليست بالكثير.

-المتصل: ههه هذا ما يعجبني فيك،لا تنافق أحدا.

-الرئيس: ليتني هكذا حقا. قل ماذا تريد بسرعة لأنك اتصلت بي في وقت متأخر.
-المتصل: أردت سؤالك عن ذلك الشخص الذي كنت سترسله لي. لقد مرّ زمن.
-الرئيس: انه عندك الآن ولا تسألني عن اسمه لأني أعلم أنك ستتراخى معه كثيرا بحكم أنه أتى من عندي، وهذا سيشعر الجنود الآخرين بالظلم.
- المتصل: ذكي كعادتك ههه. حسنا كما تحب.
-الرئيس: إلى أين وصلت في مشروعك؟
-المتصل: لقد أكملته قبل شهر. لكن يبدو لي أن فيه عطل لأنني جربت الاتصال بك ولم أفلح.
-الرئيس: أصبحت انزع شريحتي من الهاتف، لا تقلق على اختراعك.
-المتصل: الحمد لله. اطمئن قلبي أخيرا.
(قطع الرئيس الاتصال)

***

تبقت خمسة أشهر على نهاية العام وقد أنهينا تدريبات اليوم، ههه أصبح من يراني يخالني من القوات الخاصة فقد اشتدت عضلات جسدي كلها وأصبحت أمشي كالوحش رغم أني أكملت الخامسة عشر فقط. ذكرني الأمر بصحابة رسولنا الكريم الذين كان منهم من يقود جيشا وهو في الثامنة عشر. كنت فيما مضى أسخر منهم وأقول أن هذه خرافات لا تصدق. ولكن اليوم تأكدت أنني كنت مخطئا تماما. مهلا، كيف تذكرت هذا وأنا فاقد للذاكرة؟ يبدو أنني أستعيد بعض المعلومات لكن ببطء شديد، إن الأمر محير حقا.
-باسم: أهلا. لقد عدت. آسف على التأخر.
-أنا: ألم تقل أن الأمر يستغرق ساعة؟
-باسم: دائما أخطئ في العد فلا تأبه لي.

صمت العباس في هذه الأثناء وهو شارد الذهن.
-باسم: ما بك شردت مجددا؟
-أنا: سؤال يراودني منذ سبعة أشهر. لماذا أنت لطيف معي هكذا رغم أنني لا أعرفك وفوق هذا فالكل لا يطيقني بسبب تشو...
-باسم: لا تكمل. لم أكن لأساعدك هكذا لو لم أكن أعرفك. كنت ألتقي بك كثيرا في العالم الافتراضي (فيسبوك) في مجموعة فلسفة مريض نفسي.
-أنا: هذا نفس ما قالته لي ابتسام.
-باسم: متى التقيت بابتسام؟
-أنا: عندما كنت في أدرار لكني لا أتذكر هذه المجموعة.
-باسم: لا عليك، عندما تستعيد ذاكرتك ستتذكرنا. بالمناسبة هناك أعضاء كثر وكنا كالعائلة وأنت كنت أكثر عضو محبوب فيها.
-أنا: هل كان هناك من يحبني حقا؟ مع هذا الوجه القبيح!
-باسم: نعم. كنا ما يقارب المائة. وأيضاً فقد تذكرت أننا في شهر نوفمبر وليس أكتوبر لأنك بقيت في غيبوبة شهرا.
-أنا: هاااا... شهر كامل؟ لا أصدق.
-باسم: ههه الأمر يصعب تصديقه لكن هذا ما حصل.

(بعد مرور خمسة أشهر):

في حفل التخرج:
-الضابط: مبروك عليكم التخرج من الجيش، ومن يريد المواصلة معنا ليترقى فيما بعد يمكنه التسجيل في الصالة مائة وواحد.
والعباس بصفته الأول في الدفعة فليقابلني في مكتبي.
-أصابني الخوف عندما سمعت هذا الكلام لأنها المرة الأولى التي يستدعيني فيها الضابط إلى مكتبه.
-الضابط: مبارك عليك التخرج بالمرتبة الأولى. أردت إخبارك أنني لا أستطيع ترك موهبة مثلك ترحل.
-باسم: لكننا لم نتفق على هذا يا سيدي.

(قاطعه الضابط موجها مسدسا نحو رأسه)
-الضابط: سألعب معك لعبة. ما رأيك أن تبقى معنا الى الأبد وسأزيل كل هذه التشوهات التي في وجهك وسأرفع راتبك. أو.. أتركك تذهب ولكن عندما تخرج من هذه الثكنة العسكرية لن نساعدك بشيء. لديك عشر ثوان لتقرر وإلا فجرت رأس صديقك كالبطيخة.
-أنا: انتظر س..
-الضابط: واحد، اثنان، ثلاثة...
-العباس: سأذهب، فلم أعد أحتاج مساعدة أحد.
-الضابط: ضيعت على نفسك فرصة ذهبية. (مخاطبا نائبه) أعطه ملابسه التي أتى بها ودعوه يذهب.
-ارتديت ملابسي وقد كانت نظيفة جدا وكأنها جديدة. وجدت فيها مبلغين كبيرين أحدهما بالجنيه والآخر بالدينار الجزائري وجواز سفر خاص بي، علمت فيما بعد أن ذلك الضابط العصبي قد وضعها في ملابسي. لم يبق عند كلمته، قال أنه لن يساعدني فلماذا غير رأيه؟ باسم كان على عكسه فقد أوصلني إلى باب الثكنة وأعطاني هاتفا كي أتواصل معه وقال: "لقد منعني الضابط من مساعدتك لكن لن ألتزم بأمره، إن احتجت لأي مساعدة فاتصل بي وسأرشدك. أنا فخور بك، اعتني بنفسك."

الفصل الثالث

" رحلة العودة للديار"

اقتربت من الوصول إلى المطار، كانت هناك فتاة صغيرة ذات شعر جميل ووجه أجمل بكثير، أقصر مني قليلا تجلس بجانبي، كانت تتمعن في ملامحي وتبتسم، ظننتها ابتسامة سخرية فقابلتها بنظرات لامبالاة وهذا جعلها تدير وجهها غاضبة نحو النافذة، شعرت بالخجل من نفسي لأنني أحسست بظلمي لها، انتظرت إلى حين وصولنا للمطار وعند نزولنا من الحافلة مسحت على رأسها وابتسمت لها.
-كان مطارا كبيرا جدا وبقدر كبره كان عدد المسافرين. بقيت أنتظر مدة قبل أن ينادي صوت: "على المسافرين إلى الجزائر التوجه إلى المخرج" اااه لقد انتظرت كثيرا حتى تخدرت قدماي، شعرت بخوف شديد عندما نزلت الطائرة على المدرج لهذا أظن أنها مرتي الأولى. صعدنا الطائرة والمضيفتان تقابلان الناس بابتسامة لا أعلم إن كانت حقيقية أم مصطنعة، لا يهم. جلست بمفردي لأن لا أحد رضي بالجلوس بجانبي ههه، هل شكلي مقزز إلى هذه الدرجة؟ سمعت صوت فتاة صغيرة تصرخ: "أبي، دعني أذهب هناك أرجوك، لا، أعدك أنني سأكون بخير"
-اختفى صوتها وبعد برهة من الزمن فاجأتني بكلمة "مرحبا". ههه كانت نفس فتاة الحافلة وقد كانت تبدو في الثانية عشر أي أصغر مني بثلاث أعوام.
-الفتاة: هل تسمح لي بالجلوس هنا.
-أنا: بالطبع. يمكنك الجلوس.
-الفتاة: ما اسمك؟ ههه أنا اسمي رُسُلْ.
-أنا: اسمي العباس.
-الفتاة: ههه أنا لقبي العباس.
-أنا: آسف لأني تجاهلتك في الحافلة. الناس كلهم يضحكون من شكلي فظننتك أنت أيضا.

-رسل: لا تأبه. حصل خير. وجدتك جالسا بمفردك فوددت الجلوس معك وأيضا (سكتت)...
-أنا: وأيضا ماذا؟ أكملي.
-رسل: هل تتذكر أصغر عضو في المجموعة (رسل عباس)؟
-أنا: آسف فقد فقدت ذاكرتي قبل عام ولا أتذكركم.
-رسل: إذا دعني أذكرك بالقليل. كنت تحكي لنا عن همك مع أهلك ومحيطك، عن خذلان الجميع لك، عن آلامك ليل نهار، أنت كنت تحكي لنا ونحن كنا عائلتك الثانية.
-أنا: (أثر كلامها في) أتمنى أن أستعيدها في أقرب وقت كي أحبكم بقدر الحب القديم.
-رسل: هواري ومينا وعبد الجليل وأحمد وباسم وابتسام ووو كنا كالعائلة.
-أنا: باسم وابتسام التقيت بهما.
-رسل: (متفاجئة) أحسدك على هذا. إنهما أحد مشرفي المجموعة ومن أشهر الأعضاء.
-أنا: ليت ذاكرتي تعود إلي لأكون سعيدا مثلك الآن.

* * *

(من مقر العصابة)

-الزعيم: مر عام والفتى مختفي، أخشى أن يكون قد استعاد ذاكرته.. أم أنه مات؟
-أحد الرجال: لقد وصلنا توا من أحد جواسيسنا أن فتى يدعى العباس مشوه الوجه صعد على متن الطائرة من مصر إلى الجزائر وقد تتبعنا الطائرة وهي الآن فوق عنابة.
-الزعيم: شوّشوا رادار الطائرة واقطعوا عنها الاتصالات.
-الرجل: هل سنسقط الطائرة يا سيدي ؟
- الزعيم: أليس هذا واضحا! سنتخلص منه دون أن يعلم أحد (من مقصورة الطائرة).

-مساعد الطيار: لقد فقدنا الإشارة يا سيدي، وانقطعت كل الخطوط.
-الطيار: يستحيل، كيف يحصل هذا ونحن فوق مناطق سكنية؟ سنعتمد على النظر ونحاول الهبوط في أقرب مطار.
(لسوء الحظ أن الجوّ كان غائما واصطدمت الطائرة بهضبة بعيدة قليلا عن العمران وانفجرت. كان الأمر فظيعا بحق)، كان كل ما حولي حطاما والنيران مشتعلة هنا وهناك. كنت أكرر عبارة واحدة "رسل ماتت... رسل ماتت". فقدت وعيي بعدها ولم أعرف ما حصل.

(في اليوم الموالي)

ها أنا مجددا في مستشفى، كثير من الأنابيب داخلة في جسدي وقناع التنفس موضوع على فمي وأنفي، تعب شديد في جسدي.
-الطبيب: استعدت وعيك بسرعة وحالتك مستقرة، لا أعلم كيف حصل هذا ولكن حصلت لك معجزة عندما نجوت من اصطدام خطير كهذا. مات كل من كان فيها إلا أنت.
-فوجئت بهذا الكلام وكيف أنني لم أصب بجرح مجددا (حادثتا السيارة والطائرة) ثم تذكرت فجأة أن هناك سفرا طويلا لازال ينتظرني، علي الذهاب بسرعة.
-أنا: متى يمكنني المغادرة أيها الطبيب؟
-الطبيب: بعد ثلاثة أيام. علينا التأكد من حالتك جيدا.
-أنا: (أحدث نفسي) تبا، لا يمكنني الانتظار كل هذه المدة.

* * *

-النائب: سيدي. سقطت طائرة كانت متجهة من مصر إلى الجزائر العاصمة ولازال السبب مجهولا.
-الضابط: وما دخلنا نحن في الأمر؟ الحوادث تحصل أحيانا.
-النائب: كان العباس بداخلها وقد مات كل من فيها إلا هو.

-الضابط: وماذا عسانا أن نفعل حيال الأمر؟
-النائب: ألم تقل لي من قبل أن العصابة تطارده.
-الضابط: لا تقلق. جعلت باسم يخبره بالأمر قبل رحيله. بالمناسبة استدعي لي باسم حالا.
-النائب: حاضر سيدي (يؤدي التحية المملة ويخرج من المكتب وبعد دقائق يفتح باسم الباب)
-باسم: ما الأمر سيدي؟ لقد نفذت المهمة الموكلة إلي.
-الضابط: أردت سؤالك عن سبب مطاردة العصابة للعباس.
-باسم: لا أدري والله. العباس لم يبرح بلدته حتى، فكيف يطاردون شخصا عاديا؟ هذا ما يحيرني.
-الضابط: اممم لم يبرح بلدته! هذا هو مربط الفرس، هناك شيء يصله بهم دون أن يلتقي بأحد منهم.
-باسم: الانترنت؟ - الضابط: بالضبط.
-باسم: ما أعرفه أن العباس كان يقضي معظم وقته في الفيس بوك في مجموعة فلسفة مريض نفسي التي أخبرتك عنها من قبل. لابد أن لديهم عملاء فيها.
-الضابط: أعطني حسابك لنبحث فيها لعلنا نجد خيطا.
-باسم: ألن تبحث بحسابك؟
-الضابط: ألم تقل أنك من المشرفين فيها، هذا سيساعدنا أكثر.

* * *

-العميل: سيدي. سقطت طائرة في ولاية عنابة ونجا شخص واحد وهو الآن في المستشفى. سبب الحادث هو انقطاع الرادار وجميع الشبكات داخل الطائرة والجو كان غائما.
-الرئيس: كيف يتوقف الرادار فجأة؟ إن الأمر مدبر بلا شك. أمنحوني تقريرا مفصلا عن الركاب وجنسياتهم.

-العميل الثاني: الركاب كلهم مصريون إلا راكب واحد جزائري وهو الناجي، وقد وجدناه نفس الشخص الذي كان في أدرار رفقة الفتاة التي أصيبت بطلق ناري.
-الرئيس: بدأت الأمور تتضح. أرسلوا أقرب عميل متواجد في المنطقة ليأخذ الفتى إلى مكان آمن فهو مطارد.

* * *

تعالت الأصوات في المستشفى بسبب الصحافة لأن الحادثة أحدثت ضجة على المستوى الوطني، هذا ما جعلني أتأكد أني سأعرض للعالم إن بقيت هنا وهذا سيكون خطيرا عليّ.
خرجت من الغرفة كقط سرق قطعة لحم وباغتت ممرضا كان مارا في الرواق وأخذت زيّه الرسمي كي يمكنني من التنقل دون لفت الأنظار. وبالفعل حصل ما أردته وتمكنت من الهرب، رميت زي الممرض تحت شجرة مظللة ووقفت بقارعة الطريق كي أستقل تاكسي. لم يمر زمن حتى توقفت سيارة من نوع كورولا والسائق كان فتاة تبدو على مشارف الثلاثين من العمر ذات بنية متينة كالرجال،كانت تلبس قبعة تخفي ملامحها، لم تسألني عن وجهتي فقد انطلقت تقود وهي صامتة ولم تنطق ببنت شفة، سألتها مستغربا: "إلى أين سنذهب؟ أنت لم تسأليني عن وجهتي بعد" أجابت بنبرة صارمة ممزوجة بضحكة الانتصار:
-الفتاة: هه لا تهم وجهتك بقدر أهمية وجهتي.
-أنا: إذا ما هي وجهتك أنت؟
(نزعت القبعة من فوق رأسها فبدت ملامح وجهها الصارمة)
-الفتاة: وجهتي هي " الزعيم".
-أنا: انظروا من لدينا هنا. لقد التقينا مجددا يا دكتورة نهال.
-نهال: كيف عرفت اسمي رغم أننا لم نلتق من قبل؟

-أنا: عندما كنت هاربا من المستشفى رأيتك في الرواق، ثم ناداك أحدهم باسمك، كان الدكتور صابر يريدك وأظنه أحد أفراد عصابتكم، شككت في أمره منذ البداية.
-نهال: الزعيم يريد أن يعرض عليك الانضمام إلينا.
-أنا: وإن رفضت مالذي سيحصل؟
(تخرج نهال مسدسا من تحت الكرسي وتصوبه نحوي)
-نهال: الموت سيكون مصيرك.
(هذه فرد من العصابة التي حدثني عنها باسم إذن يجب علي المراوغة في الكلام لكسب المعلومات).
-أنا: لماذا تلحون علي هكذا. مالشيء المميز فيّ؟
-نهال: سيخبرك بنفسه إذا وافقت على عرضه.
-أنا: منذ متى وأنتم تطاردونني؟
-نهال: منذ تعرضك لحادث، أجب عن سؤالي ودعك من المراوغة. هل أنت موافق أم لا؟
-أنا: الموافقة ليست سهلة. كما أن الرفض ليس سهل، أريد أن أعرف إجابات عن أسئلتي كي لا أندم على قراري.
-نهال: حسنا. قل ولا تطل كثيرا لأن لصبري حدودا.
-أنا: ما هو السبب وراء انفجار الطائرة؟
-نهال: نحن السبب. أردنا التخلص منك،فالأمران لدينا سيان.
(أحسست بحرقة في قلبي وحزنٌ على موت رُسُلْ، كنت أظن أن الأمر مصادفة لكن قتلة صديقتي هم أعدائي وعلي الانتقام)
-نهال: ما بك صمتت، لديك عشر ثوان لتقرر وإلا سأفرغ هذا المسدس في رأسك. واحد، اثنان، ثلاثة .....
(فجأة ودون سابق انذار، انفجرت السيارة بسبب قنبلة كانت مزروعة قرب المحرك؛ وبدا لي أن نهال لم تكن تعلم بشأنها)
-وجدت نفسي مرميا على قارعة الطريق، كنا نسير في طريق جبلية، أنا مصدوم الآن من صوت الانفجار المدوي فأذني تطن كأن هناك بعوضة في رأسي، وحائر كيف نجوت للمرة الثالثة!

هل بي لعنة أم ماذا؟ أم أنني لست بشريا؟ هذا لا يصدق. ثم سمعت صوت فتاة تناديني: "هل ستبقى ملقيا هناك؟ هيا قبل أن يصل الناس إلى هنا" أدرت رأسي إلى اليسار قليلا لأرى سيارة سوداء ذات عجلات ضخمة وسائقها فتاة، قلت في نفسي "ما هذا؟ هل فنت الدنيا من الرجال! يبدو أن حظي أصبح جيدا مع الفتيات" دون حتى أن أفكر صعدت السيارة التي سارت بي نحو المحطة.
-أنا: هل لي أن اعرف من أنت؟ لا أظنك تعملين تاكسي.
-الفتاة: اسمي خليلة khalila Mdj، وأعرف قصتك كلها.
-أنا: لا أعرفك وتعرفينني. لابد أنك...
-خليلة: من أعضاء فلسفة مريض نفسي نعم. إلى أي ولاية تريد الذهاب الآن؟
-أنا: سأذهب لأدرار لعلي أستعيد ذاكرتي.
-خليلة: لا توجد حافلة متجهة إلى هناك في الوقت الحالي. يمكنك تقسيم الطريق. سأرسلك إلى -ڤالمة- ستجد هناك صديقا لنا وهو من أقرب أصدقاءك الذين لا تتذكرهم.
-أنا: (تذكرت أن العصابة تطاردني) لا يمكنني البقاء هنا في الشرق أكثر من هذا فأنا مطارد، قد يبدو لك الأمر غريبا لكن..
-خليلة: بعد أن نجوت من هذا الانفجار لم يعد هناك شيء غريب أبدا. وأيضا إذا كنت مطاردا فهل تظن أنك ستكون في مأمن في الجنوب؟ العصابة تطاردك أينما ستذهب. اذهب إلى ڤالمة وسيعتني بك صديقك ولا تشغل بالك أكثر.
-أنا: حسنا. كما تشائين.

* * *

-العميل: سيدي، لقد أنجزت خليلة مهمتها على أكمل وجه. وقد قالت أن الفتى اسمه العباس وهي تعرفه جيدا.
-الرئيس (بدت على وجهه الدهشة): جيد. علينا حمايته وجعله طعما للوصول إلى العصابة.

-العميل: لقد قالت أيضا أنه مستعجل ويريد العودة إلى أدرار. هل سنسمح له بالذهاب؟
-الرئيس: لا ليس بعد. علينا التأكد أولا أن العصابة لن تصل إلى أدرار لتلاحقه.

* * *

-النائب: لقد فتشنا أنا وباسم في سجل نشاطات المسؤولين ووجدنا أن العباس كان قد نشر قبل عام رابطا في المجموعة وقد تم رفضه.
-الضابط: وماذا في الأمر! هذا ليس سببا كافيا ليلاحقوه.
-النائب: لم يكن رابطا عاديا. كان خاصا بموقع مخفي بخوارزميات معقدة يستحيل ايجاده واسمه M .B
-الضابط: إنه لعصابة الرجل الأسود هل يعقل أنه اخترق موقعهم؟ هل كان العباس هاكر فيما مضى؟ الأمر يصعب تصديقه. باسم. هل تتذكر أي شيء مميز في العباس؟
-باسم: لا أدري. لم ينشر في المجموعة عن شيء من هذا.
-الضابط: ان كان هاكر فسيساعدنا كثيرا إذا استعاد ذاكرته. انتظروا! الرسالة الثانية: "مفتاح نجاحك بين يديك، فأحسن استغلاله" هذا هو معناها اذن. اتضح كل شيء.

* * *

الجو بارد اليوم على غير العادة. الناس يرتدون سترات من أنواع مختلفة، يقولون أن برد أدرار ليس بردا عاديا لأنه يهاجم العظام بصفة خاصة. هناك رجل جالس قرب زوجته في المستشفى لازال ينتظر استيقاظها. نعم، كان هذا أبي. مرّ عام كامل وأمي في غيبوبة بين الحياة والموت، في كل نهاية أسبوع يذهب خالي وابنته زهرة لأدرار لرؤية أمي، صعدا السلالم حتى وصلا للطابق الثالث.

-خالي: هل هناك تحسن أو ما شابه.
-أبي: مثل كل يوم، لا شيء جديد. علينا الانتظار أكثر.
(تجلس زهرة في الكرسي الفارغ قرب السرير وتقبل يد أمي)
-زهرة: عودي لنا يا عمتي. لا تتركينا أنت أيضاً.
-خالي: لازلت لا أصدق أن العباس مات بتلك الطريقة البشعة.
-أبي: هل أنتم متأكدون أن الجثة له؟
-خالي: لقد رأينا الخيط البرتقالي الذي كان يربطه في إبهامه.
-زهرة: أما أنا فأحس أن العباس لازال حيا.
-أبي: ما الذي يجعلك تظنين هذا؟ أليست الجثة له؟
-زهرة: لم أحس بأي بؤس أو حزن ينبعث من تلك الجثة.
-أبي: ما دخل هذا في ذاك؟
-زهرة: العباس عانى كثيرا طيلة هذه السنوات. الجميع يسخر منه ويضربه. وفي آخر يوم قبل الحادثة ضربه الأطفال دون رحمة وأظن أن هذا هو سبب رحيله.

* * *

الفصل الرابع

"قـــالمـــة"

وصلت لولاية ڤالمة وتوقفت الحافلة في آخر المحطة، هبطت منها فوجدت شخصين ينتظرانني أمام الحافلة.
-عبد الجليل: أنا عبد الجليل Abdeljalil Belmadoui لقد مر وقت طويل. أخبرتني خليلة بكل شيء وأنا حزين أنك لا تتذكرني.
-أنا: إذن فأنت هو صديق خليلة الذي أخبرتني عنه، وماذا عن هذا الشخص الآخر الذي بجانبك؟
-هشام: هههه أنا صديقه المقرب واسمي هشام hicham Lmir Hicham وأعرفك جيدا لكني لم أكن مقربا منك كثيرا.
-عبد الجليل: فلنذهب لمنزلي فلابد أن العباس متعب كثيرا ويحتاج لراحة. سنتكلم كثيرا عندما نصل للمنزل.
-استقلينا تاكسي وتوجهنا خارج المدينة ب2كلم حيث السهول الخضراء وبعض البيوت منتشرة هنا وهناك. توقفنا عند بيت مصنوع بالطوب الأحمر(الياجور)، كبير ذو طابق واحد، فيه كثير من الغرف بباحة واسعة. لا صخب سيارات ولا شحوبة الهواء، هدوء وسعة صدر عجيبتين تشعر بهما هنا، تمنيت البقاء هنا للأبد. طرق عبد الجليل الباب فرد عليه رجل مسن قائلا: "من؟" فقال بكل ثقة: "أنا". هذه من طبائع الجزائريين أن يردوا على سائل البيت بضمير المتكلم وكأن هذا ليس شيئا معلوما. وبطبيعة الحال سيرد عليك صاحب البيت بـ "من أنت؟" وهذا تماما ما حصل.
-عبد الجليل: أنا عبد الجليل يا أبي.
-الأب: قل هذا منذ البداية ولا تتعبني معك.
-فتح الأب الباب وكشف لنا عن رجل في الثمانين كما قال ابنه لكنه بصحة لا بأس بها، كان الأمر غريبا كثيرا، لكن زالت الغرابة عندما تذكرت الوسط الذي يعيشون فيه، سكان الأرياف أغلبيتهم تجدهم بصحة جيدة لأنهم يعيشون في حضن الطبيعة التي خرجوا منها. صوت الأب يبعث في النفس الراحة. نظر من

جهتنا قليلا ثم قال لعبد الجليل: "هذان ضيفاك إذا. تفضلا يا ابني بالدخول".
-دخلنا للبيت وكان أوله رواق طويل والغرف تطل بأبوابها عليه. واحد، اثنان، ثلاثة.. أمسك قبضة الباب الرابع وفتحه، كانت غرفة واسعة وزرقاء اللون وسقفها مرتفع قليلا. كانت هناك ثلاث أفرشة موضوعة بمحاذاة كل حائط، نافذة تطل على أروع منظر قد تراه في حياتك. جلسنا نتبادل أطراف الحديث.
انتهى يوم طويل، ههه امتلأ بطني لآخره وذهني لازال مشوشا بالعصابة التي تطاردني وهل سأستطيع العودة الى منزلي، أفكار كثيرة لم أجد لها حلولا.
-عبد الجليل: ما بالك مشتتا هكذا؟ سيكون كل شيء بخير.
-أنا: أخاف إن ذهبت للمنزل أن يقتلوا عائلتي.
-عبد الجليل: لا يوجد حل سوى أن تقضي عليهم أنت أولا.
-أنا: هذا أمر مستحيل.
-عبد الجليل: ههه أنا أمزح معك فقط. أخلد للنوم ودعك من التفكير. سنجد حلا فيما بعد.
بدأ هشام بحك فخذيه ببعضهما.
-عبد الجليل: المرحاض في آخر الرواق يا هشام.

* * *

-الرجل: لقد ماتت النائبة بسبب انفجار سيارتها.
-الزعيم: ماذا تقول؟ من فجر السيارة؟
-الرجل: لا أعلم سيدي. كانت هناك قنبلة مزروعة بداخلها.
-الزعيم: اممم ونجا العباس كالعادة أليس كذلك؟
-الرجل: بلى سيدي. وهو الآن متجه نحو ڤالمة.
-الزعيم: أعلموا رجالنا هناك أن يتحركوا. يجب ألا يستعيد العباس ذاكرته مهما كلف الثمن.

* * *

مرت عشر دقائق منذ ذهاب هشام إلى المرحاض ثم سمعنا صراخ والدة عبد الجليل.

-أنا: هل هذا يحصل كل يوم؟

-عبد الجليل: لا. هيا فلنذهب لننظر.

أسرعنا إلى الغرفة وفتحنا الباب وقد كان الأمر فظيعا جدا. الدماء تطلي أرضية الغرفة بأكملها والوالدان مطروحان أرضا دون حراك. في وسط الجثث يقف شخص يحمل سكينا في يده وعيناه تفيضان شرا. كان هذا هشام.

-عبد الجليل: لماذا فعلت هذا؟ ماذا فعلنا لك؟

-هشام: أنا عضو قديم في عصابة M. B وقد أُمرت بقتل كل من له علاقة بهذا الفتى.

هجم عبد الجليل عليه محاولا خنقه لكن هشام باغته بطعنة بالسكين بقرب قلبه أسقطته أرضا. هرعت بسرعة إلى عبد الجليل، وجهه كان يتصبب عرقا وأنفاسه متقطعة، وضعت رأسه على فخذي فتمتم لي بكلمات قائلا: "انتقم لوالدي". وضعت رأسه أرضا ووقفت مستعدا، حان وقت القتال.

-هشام: ستذهب معي أو ستموت.

-أنا: جرب قتلي إن استطعت.

هجم هشام عليّ بسكينه وبطبيعة الحال قد تدربت كثيرا لمثل هذه المواقف. أمسكت بمعصم يده التي تحمل السكين، لويتها وأدخلت يدي تحت إبطه وطرحته أرضا وجعلت يده تدخل السكين في قلبه. شهق شهقة كأنها صوت كبش مذبوح ثم انقطع نفسه. عدت لعبد الجليل وأقعدت رأسه على حجري.

-أنا: سيكون كل شيء بخير.

-عبد الجليل: عليك الرحيل من هنا بسرعة فلابد أن أفراد العصابة يحاصرون المكان.

-أنا: ماذا عنك؟ لن أتركك بمفردك.

-عبد الجليل: لا تهتم لأمري فأنفاسي معدودة. اذهب لآخر الرواق ستجد بابا على الأرضية افتحه وادخل الى النفق وسيوصلك الى المحطة.
-أنا: سأحملك ونذهب معا.
-عبد الجليل: أشكرك لانتقامك لي، عندما تستعيد ذاكرتك أخبر أصدقائنا في فلسفة مريض نفسي أني أحبهم. ارتخت كل عضلاته.
-خرجت من الغرفة بخطوات متثاقلة بسبب هذه الصدمة. أصدقائي يموتون واحدا تلو الآخر بسببي. تذكرت ما قاله لي وعزمت على الانتقام. مشيت لآخر الرواق وأنا أتحسس الأرضية، وجدت حفرة صغيرة بحجم أنملة. رفعت الباب. كانت الأصوات تقترب، لابد أنها العصابة علي الإسراع. أغلقت الباب من خلفي وبدأت رحلتي نحو المجهول.

* * *

-العميل: لقد وجدنا عبد الجليل ميتا رفقة عائلته يا سيدي.
-الرئيس: فقدنا عميلا من خيرة عملائنا. حان الوقت لنصبح جادين أكثر.
-العميل: معذرة سيدي. لكن هل سنخسر رجالا مقابل فتى؟
-الرئيس: لابد أن وراء هذا الفتى سرا يجب علينا معرفته.
-العميل: ماذا لو بحثنا في ماضيه فلربما نجد شيئا.
-الرئيس: معك حق. اتصل بخليلة فهي من أعز أصدقائه.
-يحمل العميل الهاتف الثابت ويضغط على الأرقام بسرعة فائقة. إنهم يحفظون أرقام بعضهم عن ظهر قلب.
-خليلة: العميل - أ- تفضل.
-العميل: "مخاطبا الرئيس" إنها على الخط. تفضل.

-الرئيس: خليلة، لقد قلتِ سابقا أنك تعرفين الفتى من قبل، منذ متى وكيف؟
-خليلة: أعرفه منذ سنتين مضت، التقيت به في مجموعة فلسفة مريض نفسي على الفيس بوك.
-الرئيس: هل تعتقدين أن لهذا علاقة بمطاردة العصابة له؟
-خليلة: لا أظن ذلك. كان من أعقل الاعضاء في المجموعة.
-الرئيس: هل تعرفين شخصا هو مشرف فيها؟
-خليلة: ههه أنا أحد المسؤولين عليها.
-الرئيس: إذا امنحينا الفيس بوك الخاص بك لنتحرى في الأمر.

* * *

-النائب: مادام الرابط هو السبب فلا شك في أن من رفض المنشور هو عضو من العصابة.
-الضابط: ليس بالضرورة فقد يكون قد رُفض بسبب عدم ملاءمته شروط المجموعة. هل استطعتم الدخول الى الرابط؟
-النائب: لا يا سيدي. انه محمي بخوارزميات معقدة.
-الضابط: تبا. باسم! اتصل بالعباس وأخبره أن يعود لمنزله بسرعة. استعادة ذاكرته هي الحل الوحيد الذي سينقذه.

***

-الزعيم: كيف استطاع فتى صغير القضاء على هشام. اللعنة. نحن نفقد رجالنا واحدا واحدا. ألم تعثروا عليه بعد؟
-النائب: لقد فتشوا المنزل شبرا شبرا ولم يجدوا أثرا له، بالرغم أننا كنا نحاصر المنزل منذ الصباح إلا أنه اختفى وكأنه جنيّ.
-الزعيم: مرهم أن يتحركوا نحو المحطة. لا تدعوه يهرب.

* * *

كان المكان مظلما جدا. نصف ساعة من الخوف والقلق وانعدام الرؤية، حقا إن بعد الظلمة نور لكن من لديه الصبر! أخيرا وصلت إلى نهاية النفق وفتحته فوجدت نفسي في أحد الأزقة الضيقة في للمدينة، خرجت للشارع الرئيسي. الساعة في الهاتف تشير إلى الأصفار الاربعة. الشارع خال من الإنس لا من الجن. فجأة أتت سيارة مسرعة لا أدري متى ظهرت في الطريق (بدا لي هذا الموقف مألوفا جدا) توقفت السيارة بقربي فاستعددت للقتال ظنا مني أن العصابة قد لحقت بي إلى هنا، لكنه كان رجلا في الثمانين، فتح الباب الأمامي وقال: اصعد.
-أنا: من أنت؟ لم أعد أريد الصعود مع الغرباء.
-الرجل: اصعد بسرعة؛ هل تخاف من رجل مسن؟
-أنا: لا أبدا. لا أقصد هذا.
صعدت للسيارة وقدماي ترتعشان.
-الرجل: إلى أين وجهتك؟
-أنا: الى المحطة. أود الخروج من هذا البلد فحسب.
-الرجل: حسنا. لكن ما بك؟ تبدو خائفا!
-أنا: هناك عصابة تطاردني وقد قتلوا صديقي. أعلم أن الأمر لا يصدق ولكن هذه هي الحقيقة.
-الرجل: هل بقي شيء لا يصدق يا بني؟! نجوتَ من حادث سيارة دون أن تصاب بجرح. هل بقي شيء لا يصدق؟؟
-أنا: كيف تعرف هذا؟
-الرجل: هذا لأني أنا من صدمك يومها.
-أنا: لا يعقل هذا! هل أنت صاحب السيارة الغامضة؟!
-الرجل: نعم، كنت أتجول في المدينة لأغير الجو وقد خرجت أمامي صدفة ولم أستطع تجنبك.
-أنا: تبا لك. هل تعلم أنك السبب في تحول حياتي جحيما.
-الرجل: هدئ غضبك. ظننتك قد مت لذلك لم أستطع فعل شيء سوى الهرب، وعندما علمت فيما بعد أنك حي بحثت عنك طيلة عام كامل لأعتذر لك.

-أنا: ما دمت تعبت كل هذه المدة وواضح من سنك أنك لا تكِّن شرا، فما علي سوى قبول اعتذارك.
-الرجل: الحمد لله. لقد وصلنا الى المحطة الآن. اعتني بنفسك
-أنا: شكرا لإيصالي يا عم. سامحتك بحقي.
-الرجل: شكرا لك. أنت فتى طيب حقا.
-ذهبت للشباك لأشتري تذكرة فقال لي البائع أن كل الخطوط تنطلق بعد ساعتين إلا خط (ڤالمة – قسنطينة) فسينطلق بعد دقائق معدودة. لم يكن لدي خيار آخر سوى الذهاب قبل أن يجدوا مكاني. انطلقت الحافلة وبعد ساعتين وصلنا لقسنطينة. توقفت الحافلة في المحطة وكانت هناك فتاة واقفة خارجها تنتظرني أشارت الي بيدها فاتجهت نحوها.

الفصل الخامس:

"قسنطينة ورجل الفندق الغامض"

-أنا: من أنت؟ وماذا تريدين؟
-الفتاة: اتبعني وسأشرح لك كل شيء في الطريق.
-أنا: وما الذي يضمن لي أنك لا تريدين التخلص مني؟
-الفتاة: هل ترى ذاك المسدس في جيبي؟ لو كنت أريد قتلك لصوبت عليك من خارج المحطة وأرديتك قتيلا.
-أقنعتني بكلامها فتبعتها. وقفنا لثوان على قارعة الطريق فأتت سيارة وتوقفت أمامنا، صعدت الفتاة وتبعتها.
-الفتاة: وأيضا لا تفكر أنني أريد خطفك لأن العصابة قد ألغت عرضها لك بعد أن قتلت هشام. وأظنك تتساءل عن السائق، لا تقلق فهذا أخي وليس تاكسي.
-أنا: واو وكأنك قارئة للأفكار.
-الفتاة: حفاظا على سلامتك قد تلقينا أوامر بإخبارك.
-أنا: اخباري بماذا؟
-الفتاة: أنا وهذا السائق وخليلة وعبد الجليل رحمه الله كلنا من المخابرات الجزائرية (لم أستطع التكلم من كمية الذهول التي أصابتني) وأيضا كلنا نعرفك من مجموعة فلسفة مريض نفسي لأننا أعضاء فيها.
-أنا: هل هذه المجموعة ذات أهمية كي يكون فيها كل هؤلاء المخبرين؟!
-الفتاة: لا. رغم أن عملنا سري للغاية إلا أن لكل منا حياته الشخصية، وهذه المجموعة قد جعلتنا نخرج همومنا.
-السائق: لا تكثري عليه يا حنان hanan ch فهو فاقد للذاكرة ولن يتذكرك.
-أنا: اذًا فاسمك حنان!!
-حنان: نعم وهذا أخي اسمه أحمد Ahmed Ahmed سنأخذك الى فندق ونؤمن المكان كي لا يجدك أحد.
-أنا: وبعدها أين سأذهب؟

-أحمد: لن تتحرك حتى نعلم سبب مطاردتهم لك وسنعمل بعدها على هذا الأساس.

* * *

-العميل: لقد وجدنا أن العباس قد نشر رابطا كان لموقع العصابة وقد رفضه المسؤولون.
-الرئيس: ماذا! كيف وصل لموقعهم! هل يمكن أن يكون هاكر؟
رن هاتف الرئيس فتسمّر الكل في مكانه. وأكثرهم دهشة كان الرئيس نفسه. لأنه متعود على اغلاق هاتفه ونزع شريحة الاتصال كي لا يتصل به صديقه الضابط لكن هذه المرة قد رنّ رغم كل هذا. أشار بيده للجالسين أمامه كي يكملوا عملهم ثم ضغط على زر الرد وأضاف على صوته قليلا من الحزم.
-الرئيس: آلو. من معي؟
-المتصل: "هدفنا واحد وهو القضاء على العصابة، والعباس هو الشخص الوحيد الذي سيساعدنا على ذلك لكن عليه استعادة ذاكرته أولا"
-انقطع الاتصال
-النائب: من يكون هذا يا سيدي؟
-الرئيس: وكيف لي أن أعرف؟ (أدخل يده في جيبه وأخرج الشريحة) أنظر لهذا. الهاتف ليس فيه شريحة أصلا.
-النائب: لا لا يمكن هذا.
-الرئيس: لا يهمنا هذا بقدر ما يهم ما قاله. العباس يجب أن يستعيد ذاكرته فهو من سيساعدنا.
- النائب: لكن كيف سيتم ذلك؟ هل سنضربه على رأسه؟
-الرئيس: اتصلوا بأحمد وأخبره أن يرسل العباس غدا الى عين صالح في الطائرة.
-العميل: لماذا لا نرسله إلى أدرار مباشرة؟ ولماذا في الطائرة؟ سيشوشون على الرادار ويسقطونها مجددا.

-الرئيس: ألم تقولوا أنه يسكن في أولف؟ عين صالح أقرب لأولف من أدرار. سنرسله في الطائرة ليصل بسرعة قبل أن يجدوا مكانه وحتى لو عرفوا مكانه سنضع شبكة احتياطية لتجنب خطأ الرادار السابق. أبقوا العملية سرية جدا.
-العميل: أمرك سيدي.

* * *

-الضابط: بدأ الأمر يتضح يا باسم. الرسالة الأولى كانت من زعيم العصابة وهي تهديد لي: "خطوة واحدة قادرة على إنهاء أمرك". والرسالتان المتبقيتان كانتا من شخص يريد مساعدتي. "عليك تخطي الحدود" يقصد بالحدود المسافة بين الجزائر ومصر أراد مني الذهاب للجزائر، "مفتاح نجاحك بين يديك" يا للهول. كان المفتاح المقصود هو العباس.
-باسم: لكن كيف عرفت أن الأولى كانت من الزعيم؟
-الضابط: أعرف زعيم العصابة شخصيا لأنه كان أحد أصدقاء طفولتي وانقطعت عني أخباره لمدة من الزمن. ثم في يوم من الأيام أرسل إلي رسالة يخبرني فيها أنه أصبح ذا شأن كبير ولم يكن يعلم أني أعمل في الجيش المصري فأفصح لي عن كل شيء حينها.
-باسم: ولماذا لم تقبض عليه حينها؟
-الضابط: عندما يتعلق الأمر بالرفيق الأول تتلاشى كل المسؤوليات أمامه.
-باسم: ارتكبت خطأ يا سيدي. ولازلنا ندفع ثمنه.
-الضابط: بعد ذلك اللقاء الأول والغياب علم من عملائه أنني ضابط في الجيش المصري حينها قطع الاتصال معي وغير مقره وكل بياناته.
-باسم: ماذا كان اسمه؟
-الضابط: اسمه الحقيقي نذير بهلول ولا أدري اسمه المستعار

-باسم: ما.. ما...ماذا قلت؟ إنه مؤسس مجموعة فلسفة مريض نفسي.

* * *

-الزعيم: إذن فهو الآن في قسنطينة.
-الرجل: لابد أنه سيذهب في الحافلة نحو أدرار مباشرة.
-تدخل فتاة إلى الغرفة وتقول:
-الفتاة: لا. سيذهب في الطائرة غدا متجها الى عين صالح.
-الرجل: من أين علمتِ هذا؟
تخرج الفتاة مسدسا وتوجهه نحو هذا الرجل.
-الفتاة: لدي مصادري الخاصة.
-الزعيم: ههه لم أندم عندما جعلتك نائبة لي. أنت أفضل من نهال الفاشلة.
-الفتاة: هذا شرف لي يا سيدي. ما الخطوة التي سنخطوها؟
-رجل آخر: فلنترك الطائرة إلى أن تقلع ونشوّش الرادار ثانية ونسقطها.
تدير الفتاة المسدس إلى هذا الرجل.
-الفتاة: لا بد أنكم تريدون مني أن أقضي على أحدكم اليوم. سيأخذون التدابير هذه المرة وحتى إن نجحنا وأسقطناها فاحتمال كبير أن ينجو العباس مجددا.
-الزعيم: معها حق. لدي فكرة أفضل وستشرفين على تنفيذها بنفسك. لا مجال للفشل هذه المرة.
-الفتاة: طوع أمرك سيدي.
ملاحظة "هذه الفتاة هي نفسها التي ذهبت خلف الزعيم سابقا"

* * *

-الضابط: جهز لي طائرة خاصة. غدا صباحا يجب أن أكون في الجزائر.
-باسم: ما الذي ستفعله؟
-الضابط: سأذهب خلف العباس. علي الإشراف على إيصاله.
-باسم: لكن لا ندري ماهي وجهته القادمة لذلك لن تستطيع الوصول إليه.
-الضابط: سنهاتفه ونسأله أين سيذهب.
-باسم: اتصلت به وقال لي أنه حتى هو حائر ماذا سيفعل. وأصدقاؤه يعتنون به ويتحكمون في وجهاته.
-الضابط: حسنا لدي فكرة. سآخذ معي عشر رجال أشداء وسأضع في كل ولاية رجلا كي نسهل عملية البحث.
رن هاتف الضابط فرد بسرعة
-الضابط: من معي؟
-المتصل: لا داعي لأن تنشر رجالك في كل ولاية. اذهب مباشرة لولاية ورقلة وانتظر في المطار هناك وسيأتيك بنفسه.
-الضابط: من أنت؟ وكيف عرفت بخطتي؟
-المتصل: لقد أرشدتك من قبل ولكنك لم تستمع إلي والآن عليك الوثوق بي.
-الضابط: اذًا فأنت صاحب الرسالتين؟ من تكون؟
-المتصل: نعم أنا هو. وهويتي ليست مهمة بقدر أهمية ما قلته لك
-الضابط: وكيف أتأكد أنك تقول الحقيقة ولا تخدعني؟
-المتصل: خذ معك العشرة رجال لأنك ستحتاجهم. اذا كنت أخدعك فلن تخسر شيئا وإن كنت صادقا فستخسر كل شيء. القرار لك أيها الضابط خالد. العباس يحتاجك.
-انقطع الاتصال.
-باسم: كيف علم هذا المجنون بخطتنا رغم أنها طُرحت توا؟
-الضابط: لا يهم شخصه بقدر أهمية كلامه. سنذهب لورقلة كما قال وستذهب معي يا باسم، جهز نفسك.

* * *

عندما دخلنا للفندق كان خاويا تماما. تقدمت حنان للمضيفة:
-حنان: هل جهزتم كل التدابير؟
-المضيفة: نعم. الفندق فارغ كما طلبتم منا.
-حنان: جيد. هذا الفندق سيكون محجوزا بأسماء وهمية وستبقى فيه أنت وبعض رجالنا المتنكرين فقط.
-أنا: هذا جنون بحق. ههه لن تصلني حتى الذبابة.
-حنان: وهذا ما نريده. خذ هذا المفتاح واذهب لترتاح في غرفتك فأنت لم تنم الليلة الماضية.
صعدت إلى الطابق الثاني. الغرفة رقم ثمانية وسبعون ههه نفس رقم غرفة باسم، انه رقم عجيب. الغرفة كانت كبيرة قليلا مطلية بالأخضر الفاتح، نافذة خشبية تطل على الشارع، سرير كبير وفراش مريح وخزانة صغيرة كي توضع الحقائب فيها. استلقيت على السرير وبت أتأمل وأفكر في كل ما حصل، من أدرار إلى هنا. فتحت عيني وكان الليل حالكا.
الساعة تشير الى الأصفار الأربعة. شعور غريب يسري في جسدي وكأن هناك دخيل في هذا الفندق غير الرجال الذين يقيمون في الغرف ينتظرون مني أن أضغط زرا في الباب إذا حصل شيء غريب. فجأة دق أحدهم الباب. إن شعوري لم يخذلني مرة. خلعت لوحة من النافذة فقوتي زادت بعد عام من التدريب، وقفت خلف الباب ربما يكون مسلحا يريد قتلي حينها سأسبقه أنا، فتحت الباب ببطء واذ به رجل كبير في السن، التجاعيد تملأ وجهه، كان هذا نفس الرجل الذي أوصلني الى المحطة والذي صدمني بسيارته في أدرار. هذا عجيب، كيف وصل الى هنا وقد تركته في ڤالمة؟
-أنا: كيف وصلت الى هنا يا عم؟ أليس المكان مشدد الحراسة؟

-الرجل: إنهم يحرسون الإنس وليس أنا. لذلك دعك مني فلدي كلام طويل سأقوله لك.

* * *

-الرئيس: هل تم تدبير كل شيء؟
-النائب: نعم يا سيدي. غدا ستقلع الطائرة ولا أحد يعلم بشأن هذا.
-الرئيس: إن حدث شيء في الطائرة فسنهبط في ورقلة، لذلك ضعوا رجالنا في المطار هناك وأخلوا المكان في حالة حدوث شيء طارئ كي لا يتأذى الناس.

* * *

ستقلع طائرتي الآن وأحمد وحنان يريدان توديعي.
-أنا: ألن تأتيا معي في الطائرة؟
-أحمد: لا. ستذهب بمفردك وستصل بخير إن شاء الله.
-حنان: عندما تصل لعين صالح ستجد عمك وخالتك، من يدري، لربما تستعيد ذاكرتك هناك.
-أنا: ماذا سيحدث بعد أن يحصل هذا؟
-حنان: ستعلم حين يحين الوقت. ستساعدنا في تحديد مكان العصابة ودع الباقي علينا، وأيضا نحن نتمنى أن تتذكرنا.
-أنا: شكرا لكم على كل شيء. تمنيت لو أننا التقينا في ظروف أخرى لكنت قد عشت اللحظة.

الفصل السادس

"حرب ورقلة الدامية "

انطلقت الطائرة. كانت من النوع الكبير ومملوءة بالركاب، وكالعادة فأنا أجلس بمفردي. الكل مشغول بشيء (كتاب - قهوة – هاتف...) ههه كان الأمر هادئا لمدة ساعة تقريبا ثم بدأ أحد الأطفال يصرخ قائلا: "أمي أريد تلك الساعة". صراخه رنان جدا أزعج الركاب جميعا بما فيهم أنا، لكن بالنا كان واسعا وصبرنا لمدة دقيقة كاملة، كنت سأصبر ثلاثين ثانية أخرى لو لم تتكلم تلك المرأة تخاطب أم الطفل: "أعطه الساعة كي يكف عنا صراخه". زاد توتر الأم لأنها لم تعرف الساعة التي يتحدث عنها ابنها، هذا ما قالته الأم للمرأة. وقفت الامرأة من مكانها متجهة صوب الطفل وبوجه مبتسم قالت له: "أين هي الساعة التي تريدها؟" ابتسامتها جعلته يفتح صدره لها وأشار بإصبعه لتحت الكرسي قائلا: "انها هناك يا عمة". أنزلت المرأة رأسها لترى فانعقد لسانها وصرخت بصوت عالٍ: "قنبلة... قنبلة" دبّ الرعب في قلوب الركاب ووقفوا من أماكنهم ليروا القنبلة بأعينهم ولسان حالهم يقول: "لعلها ليست قنبلة حقا". جاء المضيف يفك ذاك الحشد الغفي؛ كنا ثلاثمائة راكب، فكرت في أن الطائرة لو انفجرت فستصنع منهم عصير طماطم. ليس هذا وقت الأفكار السلبية. ألم يقولا لي أحمد وحنان أن الطائرة مؤمّنة جدا، إذا كيف حصل هذا؟ إن كلام ذاك الرجل المسن يتماشى بحذافيره وكأنه رأى المستقبل.

قطع تفكيري وجه المضيف البشوش رغم الوجوه العابسة من حوله ورغم هذا الموقف الصعب الذي نحن فيه، بقي صامتا مدة طويلة ثم نظر اتجاهي وقال: "اسمعوني جيدا، اششش صمتا رجاءً (صمت الجميع ليسمعوا ما سيقوله هذا المضيف الواثق من نفسه) تبقت عشرون دقيقة لتنفجر القنبلة وهذا الوقت غير كاف بتاتا لنصل لعين صالح. لذلك سنهبط في مطار ورقلة. أرجو منكم أن لا تقلقوا". رد عليه أحد الركاب (يبدو ذكيا من ملامحه): "وعندما ننزل في ورقلة ماذا سيحدث بشأن القنبلة؟ هل سنستطيع النجاة؟"

-المضيف: (قابله بابتسامة) ستكون فرقة تفكيك القنابل في انتظارنا في المطار وأنتم ستهبطون مباشرة.
-تنفس الجميع الصعداء وزال جل همهم إلا هم واحد كان يفكر فيه الكل وهو من سيهبط أولا؟
(من قمرة القيادة)
-الطيار: قبطان طائرة S14 حوّل.
-الموجه: أسمعك. أكمل.
-الطيار: لدينا قنبلة على متن الطائرة وسنهبط في مطار ورقلة. أخلوا المطار واستدعوا فرقة تفكيك القنابل وجهزوا حافلات لإبعاد المسافرين عن الموقع.
-المحول: علم. ستكون الفرقة مستعدة بعد 5 دقائق.

* * *

-الرئيس: شككت في حدوث هذا. لا بأس أيها الزعيم فنحن قد اتخذنا احتياطاتنا.
-النائب: الفرقة مستعدة والجنود مستعدون في المطار.
-الرئيس: هل وجدتم أي شيء يثير الشبهة بعدما أفرغتموه؟
-النائب: لا لم يجدوا شيئا سوى عشرة رجال بلباس مسافرين حاولنا اخراجهم لكنهم قالوا انهم جنود من الجيش المصري وهم هنا للمساعدة لا غير.
-الرئيس: أتيت أيها الضابط أخيرا، ههه هذا مثير جدا. ماذا فعلتم مع قوات الدرك التي أتت؟
-النائب: كلفناهم بمهمة تنظيم الركاب وايصالهم للحافلات.
-الرئيس: جيد. إن كل شيء يسير وفق خطتنا.

* * *

الطائرة على وشك الهبوط والجميع قلق حيال ما سيحصل في الدقائق القادمة. تكلم المضيف من الميكروفون: "نحن الآن على وشك الهبوط. يرجى ربط الأحزمة".
-لماذا على الناس أن يموتوا بسببي؟ تحطمت طائرة من قبل والآن طائرة أخرى. لا، لن أسمح بحدوث هذا مجددا. سأحمي الركاب بأي ثمن.
-ارتطمت عجلات الطائرة بالأرض مخبرة أن رحلة الجو قد انتهت. نظر الكل من النافذة فوجدنا رجالا كثر مصطفين في الخارج (عشرة رجال الضابط – عشرون رجل استخبارات – أربعة من فرقة تفكيك القنابل – عشرة رجال درك) أي أربعة وأربعون رجلا.
أراد الركاب النزول من الطائرة لكن المضيف قاطعهم بخروجه من مقصورة القيادة وعلى ملابسه أثار دماء وفي يده اليمنى سيف وفي اليسرى مسدس أشهره في وجه الركاب وقال: "أعزاءنا المسافرين ستبدأ الآن لعبتنا. أولا لن يتحرك أحد من مكانه وإلا قضي عليه. ثانيا هناك مائة رجل هنا هم أصدقائي وسيقفون. بدأ الرجال يقفون واحدا واحدا والمضيف ينظر اليهم ثم صوب المسدس على أحدهم وفجر رأسه :
-المضيف: هذا ليس من أصدقائي وقد أراد ممارسة الخداع ليهرب.
أخرج الرجال المائة أسلحة من جيوبهم وحقائبهم. فكرت هنا أن عمال المطار في قسنطينة متورطون فيستحيل صعود كل هؤلاء بهذا الكم من السلاح. وذاك المضيف أظنه قائدهم بسبب أنه قال: "سنهبط لنقضي على هؤلاء ونعود لكم. اذا أنهينا أمرهم قبل انفجار القنبلة سنوقفها ونترككم ترحلون. لا تفكروا في الخروج لأن الخارج سيصبح ساحة حرب". أراد فتح الباب لكن ناداه أحد الركاب صارخا: "لماذا تفعلون هذا بنا؟" أطلق أحدهم النار عليه فأرداه قتيلا ما زاد من رعب الركاب.
-الضابط: ماذا يحدث في الداخل؟ لماذا لم ينزلوا حتى الآن؟

فتح المضيف باب الطائرة وأطلق أربع رصاصات على فرقة القنابل وقتلهم، هكذا ليضمن أن لا أحد سيوقف خطتهم.
-الضابط: اتخذوا وضع الدفاع.
-اختبئ الرجال كلهم خلف الأشياء (شجرة، كرسي..) والرجال المائة ينزلون بسرعة واحدا تلو الآخر وانتشروا في المطار يقتلون كل من وجدوه أمامهم.
-لم يبق في الطائرة إلا الركاب العاديون فقط، فصعد فيهم أحدهم يخطب: "يجب أن نجد حلا. لقد رأيتم كيف ماتت فرقة تفكيك القنابل والرجلان على هذه الطائرة. هل بينكم أحد يعرف شيئا عن القنابل وطريقة تفكيكها؟"
عندما كنت في الجيش تدربت على كل شيء بإتقان إلا القنابل رأيت منها القليل فقط. لكن هذا كله حدث بسببي لذلك علي المساعدة. رفعت يدي قائلا: "أنا يمكنني العون". ضحك الركاب (طفل صغير ههه هل هو يمزح؟). تكلم ذاك الرجل مجددا: "صمتا بارعون فقط في الانتقاد، دعوه يفعلها مادام لا جرأة لأحدكم لفعلها" ثم نظر إلي وقال :"يمكنك فعلها يا بني".
وقفت من مكاني وأعصابي ترقص رقصا. اتجهت نحوها وحينها رأى الركاب مشيتي وحجمي الحقيقي. وصلت قرب القنبلة، بدأت أتفحصها أولا، أحسست حينها بمسدس موجه نحو رأسي وصوت يقول لي محذرا: "توقف مكانك يا العباس انتهت مسيرتك هنا" ههه ميزت الصوت مباشرة ولم أصدم أبدا لأني كنت أتوقع أن هذا سيحصل. "أخيرا ظهرتِ. مر وقت طويل يا ابتسام"

* * *

-النائب: سيدي. إن عددهم ضعف عددنا. ورجالهم أمهر من رجالنا حتى. مالذي سنفعله؟
-الرئيس: استدعوا القوات الخاصة ومر رجالنا بالتراجع حالا.
-النائب: لكنهم سيقتلون كل من يروه أمامهم.

-الرئيس: لا خيار آخر لدينا.

* * *

قبل يوم:

-الزعيم: سنزرع قنبلة في الطائرة ونرسل 100 رجل انتحاري ستكونين على رأسهم.
-الفتاة: ألن تكون الاستخبارات قد اتخذت احتياطاتها؟
-الزعيم: احتياطاتهم ستكون في مطار ورقلة وليس في الطائرة. لن يتوقع أحد أن ثلث الركاب هم رجالنا.
-الفتاة: وعند هبوط الطائرة ماذا سنفعل؟
-الزعيم: سترعبون الركاب كي لا ينزل أحد ثم ستنزلون إلى المطار وتقضون على كل من تجدوه أمامكم.
-الفتاة: رائع. سننتقم لرجالنا ونقضي على العباس، سنضرب عصفورين بحجر واحد.
-الزعيم: أيضا. أنت ستبقين في الطائرة بعد نزول الرجال لأن لا أحد سيشك بك وأظن ان العباس قد اشتاق إليك.
-الفتاة: إذن ستكون عملية انتحارية.
-الزعيم: عندما تتبقى عشر ثوان أوقفي القنبلة واقضي على العباس واهربوا بسرعة.

* * *

قبل ثلاثة أيام: (قرب الثكنة العسكرية بمصر):

-باسم: أريد إخبارك بشيء قبل ذهابك.
-أنا: قل. خيراً ان شاء الله.

-باسم: ابتسام لم تمت. أصيبت في كتفها لا غير.
-أنا: كيف تعرف هذا؟ رأيت بنفسي الرصاصة اخترقت رأسها.
-باسم: هذا لأنني أنا ذلك القناص. أنت كنت مصدوما فلم ترَ.
-أنا:(شددت باسم من ياقته بغضب) ماذا فعلت لك لتقتلها؟
-باسم: لو أردت قتلها لفعلت (هذه الجملة جعلتني أهدأ). كان هذا أمرا من الضابط ولأنه لم يخبرني بالسبب فلم أشأ قتلها.
-أنا: اذاً فهي حية! هذا خبر مفرح.
-باسم: لا، ليس مفرحا البتة. قبل أيام من مجيئك إلى هنا أتت ابتسام متنكرة بزي فتى تريد الانضمام الى المعسكر لكن الضابط رفض وقام بإهانتها ظنا منه أنها ولد. ثم انضمت الى العصابة بعدها مباشرة لذلك أراد الضابط قتلها.
-أنا: ما.. ماذا؟ لا يعقل. ساعدتني وعطفت علي، لا يمكن.
-باسم: كانت تريد أخذك لمقر العصابة يا فهيم وأنت خدعت. أنا نادم لأني لم أقتلها. ستكون بلاءً على رؤوسنا.

* * *

ابتسام: ظننتك ستتفاجأ برؤيتي.
-أنا: كنت أعلم أنك لازلت حية وأنك فرد من العصابة ومتأكد من كونك ستخرجين أمامي ذات يوم وها قد جاء ذاك اليوم.
-ابتسام: جيد أنك تعلم كل شيء كي لا تموت وأنت تظن أني كنت أساعدك ذاك اليوم.
-أنا: لماذا انضممت إليهم؟ أنت لست بهذا السوء.
-ابتسام: كي أنتقم من ذلك الضابط الذي أهانني. أنظر إلي الآن، رغم أنني أخفقت في إحضارك من أدرار وتبعتك دون إذن إلا أن الزعيم رحب بي وجعلني نائبته ويده اليمنى.
-أنا: إذًا فهو من زرع القنبلة في سيارة نهال ليتخلص منها.
-ابتسام: ربما، فقد كانت فاشلة في كل شيء.

-أنا: ألم يكن أعضاء فلسفة مريض نفسي يحبونك؟ لماذا خنت ثقتهم بك وأصبحت عدوة لهم؟
-ابتسام: تصنعت لهم الحب فقط، ثم أن تلك المجموعة أغلب أعضاءها من رجالنا، فلا يمكنك محاسبتي وحدي.
-أنا: لم يفت الأوان بعد، يمكنك تصحيح أخطاءك.
-ابتسام: لا أريد. أنا مرتاحة هكذا.
-أنا: أنت تخدعين نفسك وتخفين الطيبة فيك.
-ابتسام: اصمت. أنت لا تعرف شيئا عني.
-أنا: أنت أول من أحسست بحبه نحوي، لازال لديك وقت للتراجع.
(باسم الآن على بعد كلم واحد من المطار يفترش الأرض وينظر عبر مكبر القناصة).
-باسم: هذه المرة لن أخطئ الهدف.
-ابتسام: أنا لم يبق في حياتي الكثير وان خالفت أوامر الزعيم سيقتلني.
-أنا: الزعيم يريد قتلي، فهل أنا ميت؟ لازلت حيا.
-ابتسام: (تضغط المسدس في رأسي) ههه كنت أمزح معك. ستموت هنا لأني أنا أريد هذا.
-أنا:(رفعت يدي عاليا كالمسلم نفسه للشرطة) انتهى وقتك.
-(تحطم زجاج النافذة التي تقابل ابتسام بسبب رصاصة اخترقت قلبها. صرخ الركاب مجددا فزعا وفرحا)

-التفت الى القنبلة بسرعة فقد أضعت الكثير من الوقت. القنبلة غريبة، مكعبة الشكل ومغلفة بالأزرق. تبقت ثلاثون ثانية. حتى لو عرفت طريقة تفكيكها فالوقت لن يكفي، ما الحل؟ ما الحل؟ هل سيموت كل هؤلاء بسببي، محال، لازال علي الانتقام لرسل وعبد الجليل. نظرت للحظة في جثة ابتسام ويدها ممدودة نحوي وكفها مفتوح ومكتوب عليه:

D .O .H .C .T .F .W .Y

حينها علمت أن ابتسام كانت تريد مساعدتي. ربما كانت تفعل كل هذا بإرادتها، لكن قلبها الطيب لم يتركها تفعل. تبقت عشرة ثوان، علي إدخال الأحرف بسرعة، توقفت القنبلة عند 00:02. استرخى الركاب وزال همهم وأشرقت وجوههم شمسا. هللوا وصرخوا فرحين إلى أن صرخت فيهم: لم ننجو بعد، علينا إيجاد خطة للهرب فأفراد العصابة كثر وسيهزمون الجنود ويعودون إلينا ". أنصت إلي الجميع، لا شك أنهم باتوا يثقون بي. تكلم ذلك الرجل مجددا: "ماهي خطتك؟ كلنا آذان صاغية "

* * *

-الضابط: هل وصلت القوات الخاصة؟

-النائب: نعم. سينتهون منهم بعد دقائق.

-الضابط: جيد. أرجو ألا يخرج أحد الركاب من الطائرة، لأنهم كالوحوش لا يفرقون بين عدو وصديق.

(رن هاتف الضابط فأخرجه مستعجلا)

-المتصل: معك رئيس الاستخبارات. أعلم أنك قلق على ماذا سيحصل، وقلق على العباس وتريد الانتقام لما فعلوه بك في السنوات الماضية. أترك الباقي علينا وعد الى بلدك مطمئنا.

-الضابط: أريد معرفة ماذا سيحصل.

-الرئيس: سنبلغك بآخر المستجدات فأرجو منك العودة لأنك تعرقل عملنا وتصعبه.

(انتهى الاتصال)

-النائب: ماذا سنفعل يا سيدي. هل سنغادر بهذه السهولة؟

-الضابط: لا يمكننا المعارضة فنحن في بلدهم. أين هي طائرتنا لنعد إلى مصر.

-النائب: إنها في مطار بسكرة. لكن ماذا عن باسم؟ إنه لا يرد؟

-الضابط: فلنتركه هنا في الجزائر. لا خوف عليه، لديه أقارب وأيضا سيفيدنا بقاؤه كثيرا كي يكمل عملنا الذي بقي ناقصا.

* * *

-أنا: (مخاطبا الركاب) سأخرج من الطائرة بمفردي وسأبحث عن طريق آمن للهروب وبعدها سأعود إليكم ونخرج من هنا.
-أحد المسافرين: ما الذي يضمن لنا عودتك؟
-أنا: وثقتم بي مرة ولم أخذلكم، ثقوا بي مرة أخرى.
فتحت باب الطائرة ببطء ونزلت الدرج حبوًا إلى إن لمست يداي الأرض. نظرت يمنة ويسرة، وجدت جهة خالية من الناس فقررت تفحصها، وقفت لأركض فرآني أحد أفراد العصابة، صوب مسدسه اتجاهي وبدون أدنى تردد ضغط الزناد. رفعت يداي قرب أذناي وأغمضت عيناي واستسلمت للنهاية، لكن لم أشعر بشيء. فتحت عيني ببطء وجدت ذلك الرجل مطروحا أرضا وشخص آخر ساقط أمامي، الدماء تغطي بطنه، ليس من العصابة ولا من القوات الخاصة. حملته بيداي وأنا اردد له: "اصمد. اصمد ستنجو" مسك قميصي بيده وقال: "بدرالدين (بدر الدين ساري) وفى بوعده وأنقذ العباس" ارتخى جسده بين أحضاني وارتخى قلبي معه. كيف ينقذك أحدهم من الموت وأنت لا تعرفه. كيف يقف كل هؤلاء الناس في صفك وأنت لا تعرف واحدا منهم. كيف يعرفني هؤلاء جيدا. حقا إن الأمر مؤلم. فقدت وعيي.

* * *

-رجل: سيدي. تدخلت فرقة القوات الخاصة وقتلوا كل رجالنا.
-الزعيم: ماذا حصل للعباس وابتسام؟
-الرجل: ابتسام ماتت والعباس أوقف القنبلة.

-الزعيم: (غاضبا) اووه. كيف يحصل هذا؟ لماذا لا يموت هذا الفتى؟ وكأن الرب يقف بجانبه. أين هو الآن؟
-الرجل: اختفى تماما من الوسط ولم ندر أين ذهب. حتى الاستخبارات لم يجدوه. وابتسام قتلها قناص!
-الزعيم: وهل تبعتم أثره؟
-الرجل: تبع جواسيسنا اتجاه الطلقة وقد وجدوا معدات قناص على بعد كلم واحد من المطار وآثار أقدام حديثة.
-الزعيم: جيد. أظنه نفس القناص الذي كان في أدرار. إلى حين خروج الفتى من جحره سنأخذ انتقام ابتسام.

* * *

-أفقت أخيرا من غيبوبتك. بقيت نائما عشر ساعات. الحمد لله على سلامتك يا بني. هذه كانت كلمات امرأة عجوز.
-أنا: أين أنا ومن أنت وماذا حصل؟
-المسنة: أتى بك أحد الرجال إلى هنا وقال أن نهتم بك.
-أنا: كنت في المطار أبحث عن طريق الهروب. ماذا حصل للمسافرين؟ هل نجو؟
-المسنة: لا أعلم عن ماذا تتحدث لكن ذلك الرجل ترك لك رسالة وطلب منك أن تفتحها بعد استيقاظك.
-ناولتني العجوز الرسالة وعلى وجهها ابتسامة جميلة. أخذتها من يدها وفتحتها ببطء. مكتوب عليها بخط عريض: "نجا الجميع فلا تقلق". أفرحتني هذه الأخيرة كثيرا وبت أردد: "الحمد لله الحمد لله".
-المسنة: الطعام جاهز، فلنذهب ونأكل، لا شك أنك جائع.
صوتها دافئ كالعيون في الشتاء رغم كل التجاعيد التي تملأ وجهها وشعرها المفصل بظفائر. أخذتني من يدي إلى غرفة أخرى مضاءة ذات أبعاد عادية أربعة على ثلاثة متر، مزخرفة بالورود والأشجار وكأنها حقيقية، رائعة بمعنى الكلمة. بقيت

شاردا فيها لمدة ثم نظرت أمامي لأجد فتاة جالسة، قلت ببلاهة: "كيف استطعت رسم هذه الفتاة يا جدتي؟" قالت الفتاة بغضب:" ماذا تقول أيها الأحمق" هنا تصنعت المفاجئة وأجبت: "ظننتك رسمة". ضحكت الجدة، ضحكتها جميلة حقا.
-الجدة: تفضل بالجلوس قبل أن يبرد الطعام.
-جلسنا سويا نأكل ونتبادل أطراف الحديث.
-الفتاة: أي سفر ألقى بك هنا؟
-أنا: كنت عائدا إلى أدرار وعصابة تريد قتلي، ولازلت مطلوبا.
-الفتاة: ماذا فعلت ليرغبوا بك هكذا؟
-أنا: لا أعلم، المهم أن علي استعادة ذاكرتي كي أستطيع النجاة.
-الفتاة: أنت فاقد للذاكرة اذًا، للأسف لن تتذكرني.
-أنا: عضو آخر من مجموعة فلسفة مريض نفسي؟
-الفتاة: بالضبط. اسمي الحقيقي كريمةAmmari karima ويلقبونني برفيقة العجوز.

* * *

(من بيت خالي على نشرة الأخبار):
-خالي: زهرة يا ابنتي تعالي بسرعة
-زهرة: ماذا هناك، خيرا أبي.
-خالي: انظري للتلفاز.
-الصحفي: اليوم أصابت حادثة غريبة مطار ورقلة حيث حدثت مناوشات بين أفراد الجيش وإرهابيين وقد تم القضاء عليهم جميعا وانقاذ ما يقارب 250 مسافرا كانوا رهائن وهذه بعض التصريحات لهم:
-المسافر الأول: كانت هناك قنبلة في الطائرة وأوقفها فتى في الخامسة عشر من العمر.
-المسافر الثاني: أنقذنا فتى كانت التشوهات تغزو وجهه وضحكنا منه في البداية لكنه الآن بالنسبة لي أغلى شخص قابلته.
-زهرة: هل يمكن أن يكون العباس نفسه؟

-خالي: لا أدري. قيل أن الطائرة كانت متجهة نحو عين صالح أظن أنه كان عائدا للديار.
-زهرة: أتمنى أن يكون هو فقد طال غيابه.

* * *

أنا: كثيرون التقيت بهم وهم أعضاء فيها. لكني لم أتذكرهم.
-كريمة: إنهم عائلتي الثانية. رغم أنه موقع افتراضي إلا أنهم منحوني حنان الأب والأم.
-أنا: هل مات أبواك أم ماذا؟
-كريمة: أمي توفيت قبل سنوات وأبي يعمل ضابطا في مصر ولا يزورنا سوى مرة في العام حتى أنه لم يحضر لجنازة أمي. يرسل لنا النقود فقط، وبعد وفاة أمي تبنتني الجدة واهتمت بي.
-أنا: كم عمرك الآن؟ أظن أنك في الثامنة عشر أليس كذلك؟
-كريمة: بلى. أنت بارع في معرفة الأعمار.
-أنا: وأيضا ما اسم والدك الضابط؟
-كريمة: اسمه خالد.
-أنا: ههه انه نفس الضابط الذي دربني. رجل عصبي وحازم.
-كريمة: حقا؟! اذا التقيته مجددا فقل له أن ابنتك الوحيدة لم تذق حنان الأب بعد.
حل الصباح. انطلقنا الى المحطة أنا وكريمة، ذهبت معي لتوصلني. انها فتاة مفعمة بالحيوية على عكسي تماما، طوال الطريق كانت تحدثني عن نفسي ومنشوراتي وأصدقائي، زادت رغبتي في استعادة ذاكرتي. وصلنا الى المحطة أخيرا، ذهبنا الى الشباك فدفعت عني ثمن التذكرة وقالت: "عندما تصل لعين صالح ستبقى أمامك مائة وخمسون كلم أخرى لأولف". أخرجت الهاتف الذي أعطاني اياه باسم فوجدته مغلقا، قالت مجددا: "عندما جاء بك الرجل الغريب إلينا أوصانا أن نبقي هاتفك مغلقا". لقد فكّر

جيدا سيعرفون مكاني اذا شغلته. لن أفتحه حتى أصل لعين صالح.
ابتسمت كريمة وقالت: "لا تزال صغيرا على حمل عبء كهذا. ولكن عدني أن تعتني بنفسك" وعدتها وسأفي بوعدي.
انطلقت الحافلة قبل خمس دقائق. فارغة لدرجة أن كل مسافر يجلس في كرسيين. أنا كنت في الصف الثالث أتابع الطريق بعيني. التفتت للخلف وإذا بشخص يحدق بي، ما إن رأى وجهي حتى بدت عليه الدهشة والسرور، قام من مكانه وأتى ليعانقني وقال: " صديقي، اشتقت لك". أكمل العناق ثم مسك بكتفي وقال: "العباس أمامي، هل أنا في حلم؟" رغم أنني لا أعرفه إلا أني قلت له: "نعم. العباس. لست تحلم". نظرت إلى الأرض في خجل ثم أكملت قائلا: "لكني لا أتذكر شيئا من الماضي". ضحك وقال: "لا يهم. المهم أنا أتذكرك...هل يمكنني الجلوس بجانبك؟". أجبته: "نعم. تفضل"
-الفتى: أنا وأنت كنا أصدقاء مقربين في فلسفة مريض نفسي. كنت دائما أود مقابلتك على أرض الواقع وها قد تحققت أمنيتي.
-أنا: التقيت في سفري الكثير من الاصدقاء ولكن للأسف لم أستطع تذكر أي منهم.
-الفتى: حقا! بمن التقيت؟
-أنا: باسم. ابتسام. رسل. عبد الجليل. خليلة. احمد. حنان. كريمة. هشام. وأنت ما اسمك بالمناسبة؟
-الفتى: اسمي السعيد (السعيد سيدي بوزيد) وكل الذين ذكرتهم أعرفهم وتمنيت أن ألتقي بهشام.
-أنا: (ما إن ذكر هشام حتى اضطرب قلبي. لم أشأ أن أخبره بموته) هل تعرف شخصا اسمه بدر الدين؟
-السعيد: بدر الدين ساري أعرفه، صديقي المقرب.
-أنا: كيف أحببتم بعضكم من خلال موقع الكتروني لا غير!

-السعيد: كما يحب الناس الألعاب الإلكترونية ويتعلقون بها، البعض يحب الأنمي ويتعلقون بشخصياته، أفلا يحق لنا أن نحب أناسا مثلنا من خلال تعليقاتهم ومنشوراتهم؟
-أنا: ههه أقنعتني حقا.
(رن هاتفي فجأة)
-أنا: (ارتعبت جدا. هل عرفوا مكاني؟ لكن كيف يرن الهاتف وهو غير مُشغل؟ سأرد لأرى) آلو. من معي؟
-المتصل: معك الضابط أيها الأحمق. حاولت الاتصال بك لكن هاتفك كان مغلقا فاضطررت لاستعمال اختراعي.
-أنا: أخاف أن يكتشفوا موقعي إن أشعلت هاتفي. سأقطع.
-الضابط: لا. توقف يا غبي، هاتفك وشريحة اتصالك من نوع خاص فهي مصنوعة تحت اشرافي ولا يستطيع أحد تعقبها إلا اذا اتصل بك. ولا يعرف أحد رقمها غيري أنا وباسم.
-أنا: حسنا. لقد اتصلت بباسم قبل يومين وطلبته في موضوع خاص. كيف حاله؟
-الضابط: تركته في الجزائر كي يأتيني بآخر المستجدات. اتصل به واطمئن عليه.
-أنا: سأفعل يا سيدي وأنت أيضاً اتصل بابنتك فهي تحتاجك.
-الضابط: ههه إذا فقد التقيت بها. سأحاول أن أفعل، أيضاً نسيت إخبارك أنك كنت هاكر في الماضي وهذا هو سلاحك. استعد ذاكرتك أولا.
-أنا: أعلم هذا فلا تقلق.
(قطعت الاتصال ثم التفت للسعيد)
-أنا: هذا صديق لي أراد الاطمئنان علي. آسف لتأخري عليك.
-السعيد: لا داعي للاعتذار.
(رن هاتفي مجددا).
-أنا: (انظر للهاتف لأرى اسم المتصل. انه باسم، لقد سبقني)
-السعيد: رد بسرعة. لا تدع المتصل ينتظر.
- أنا: آه نعم (ضغطت زر الرد). أهلا باسم. كيف حالك؟

-المتصل: لقد تخلصنا من صديقك والدور قادم عليك.

* * *

- الزعيم: جيد أنكم وجدتم مكانه. سننهي هذه المهزلة قريبا.
- أحد الرجال: هل نرسل رجالنا ليقتلوه؟
-الزعيم: لا، اتركوه يصل لعين صالح. ستبدأ أكبر لعبة عرفها التاريخ.

* * *

-الرئيس: هل هناك معلومات؟ كيف لم يكن مع المسافرين؟ ألم يكن المطار محاصرا من كل الجهات؟
-النائب: بحثنا في كل حجر ولم نجده. سألنا أحد المسافرين فقال أنه خرج ليؤمن لهم مخرجا ولكنه لم يعد بعدها.
-الرئيس: اذا علمت العصابة مكانه سنخسر كل شيء (رن الهاتف الثابت للمركز) أخذ السماعة أحد العملاء تكلم قليلا ثم استدار للرئيس وقال: "مكالمة لك سيدي" ناوله السماعة. أضاف على نبرته شيئا من الحزم وقال: "آلو. معك رئيس الاستخبارات". رد عليه المتصل بثقة:
-المتصل: لا تقلق على العباس فهو في طريقه إلى عين صالح.
-الرئيس: حضرة الضابط. من أين لك رقم هاتفنا الثابت؟
-الضابط: لا تستخف بي أكثر. ركزوا على العباس ولا تدعوا مكروها يصيبه. أجل العصابة اقترب وهو مفتاح نجاحنا.
(قطع الضابط الاتصال)
-الرئيس: (مخاطبا العميل) غيّروا الهاتف وتخلصوا من هذا. (مخاطبا رجاله) اسمعوني جيدا. لقد خسرنا الكثير من رجالنا بسبب هذه العصابة وقد آن أوان فنائها. العباس الآن بين ورقلة وعين صالح. ابحثوا عنه في جميع الحافلات التي تعمل على هذا الخط. إلى أن يصل لعين صالح لا يجب يصيبه مكروه.

* * *

أصابني الرعب كثيرا. لا شك أنهم سيفجرون الحافلة أو يرسلون لي شخصا يقتلني. الاحتمال الأول غير ممكن لأنهم يعلمون أنني لن أموت بانفجار. على كلٍ علي أخذ حذري.

-السعيد: ما بالك مرتعب هكذا؟ هل حصل شيء؟

-أنا: اه لا شيء. لا تهتم. حدثني أكثر عن المجموعة.

-السعيد: كنت دائما مكتئبا لكن رغم هذا أحبك الجميع. لا أعلم كيف حصل هذا، حتى أنا الذي لا أبالي كثيرا بالأعضاء إلا أن شخصيتك جذبتني.

-أنا: ههه أخبرني عن أكثر شخص مثير للفضول.

-السعيد: هو عضو اسمه الهواري (القعقاع بن جندع) لقبوه بحكيم المجموعة، لا نعرف عنه شيئا سوى اسمه.

-أنا: اوو اذا استعدت الذاكرة سأتعرف عليه.

-السعيد: كان كثيرا ما يثير معك المشاكل ويقول لك: "اذا التقيت بك سأعض خدك" ههه

-أنا: ههه وماذا عنك؟ ما المميز فيك؟

-السعيد: أنشر منشورات خارج موضوع المجموعة وأتلقى تحذيرات من المسؤولين بسبب هذا. هدفي كان رسم البسمة.

(توقفت الحافلة بعد ثلاث ساعات سفر)

-السعيد: وصلنا إلى" المنيعة" وهذه هي محطتي. أنا سعيد جدا لأنني حظيت بكل هذا الوقت معك.

-أنا: الآن أصبحت اسما على مسمى ههه.

-السعيد: ههه عندما تعود الى المجموعة لا تنسى أن تلقي التحية.

-أنا: إن شاء الله. سأروي للأصدقاء قصتي كلها، لا تقلق.

(انطلقت الحافلة لتكمل مسيرها الى عين صالح).

تبقت خمس ساعات وأصل،قالت لي حنان أني سأجد عمي وخالتي هناك، لكن كيف سأجدهم؟ آاه رأسي يؤلمني عندما أفكر في الأمر. انطلقت الحافلة منذ ساعتين والرق القاحل هذا لا

ينتهي. فكرت لو أن الدولة استغلت هذه الأراضي للزراعة أو لتشييد العمران لن يبق مواطن دون مأوى أو سكن ثم تذكرت أنني في الجزائر. شردت في تفاصيل الطريق المكررة بعمق حتى نسيت أين أنا، لم يخرجني من شرودي سوى انفجار إطار العجلة، انه صوت مدوي. توقف السائق ونزل الركاب في منتصف الطريق ينتظرون انتهاء التصليح. انعزلت قليلا عن البقية واقفا لا يسعني الا الانتظار. هنا اقتربت مني فتاة غريبة ذات ملامح مخيفة قليلا، قالت لي وبدون مقدمات: "الاختبار الأصعب ينتظرك في عين صالح". استغربت من كلامها حتى أن الأسئلة تراكمت في طرف لساني، أخرجت أهمها بصعوبة: "أي اختبار هذا؟" ضحكت ساخرة وقالت: "إن أخبرتك فلن يبق اختبارا" أغاظتني ضحكتها فأضفت على نبرتي شيئا من الغضب والجدية وقلت: "من أنت؟ لم نلتقِ من قبل"

-الفتاة: أنا المسماة شيماء في فلسفة مريض نفسي Dujie kralices أعلم أن العصابة تطاردك وعين صالح ستكون المحطة الفاصلة في رحلتك وهي الأصعب.
-أنا: م. م.. مهلا. كيف تعرفين كل هذا؟
(صرخ السائق على الركاب يناديهم الى الصعود)
-شيماء: لا يهم من أنا بقدر أهمية ما أخبرتك عنه، هيا لنصعد بسرعة. سبقتني للحافلة وصعدت قبلي. شممت قليلا من الهواء العليل ريثما يصعد الجميع. تذكرت أن أسألها إن كانت تعرف عين صالح علها تساعدني عندما نصل، صعدت الحافلة مسرعا وفتشتها كرسيا كرسيا ولم أجدها. ألم في رأسي لا يحتمل، اسود كل شيء فجأة. فتحت عيني ببطء، أنا جالس في مكاني، أظنه كان حلما. لا بأس سأكمل نظري الى النافذة، ستنقضي هذه

الساعة والنصف المتبقية. هذه أمّل مدة قضيتها هذا العام، نفس المناظر مكررة طيلة الطريق.

الفصل الأخير :

"المحطة الفاصلة - عين صالح - "

يحتاج المرء صبر أيوب أو سبات أصحاب الكهف ليستطيع النجاة من هذا السفر. وصلنا المحطة أخيرا والساعة تشير إلى الرابعة زوالا. لفت انتباهي كلام السائق إلى مساعده: "لو لم ينفجر الاطار لوصلنا باكرا". اقتربت منه لأسأله: "هل انفجر الاطار حقا؟" أجابني والتعجب باد على وجهه" غريب، ألم تنزل مع الركاب وكنت منعزلا عنهم!" هنا ظننت نفسي فهمت الأمر فزدته سؤالا: "أين كانت تجلس تلك الفتاة الغريبة الملامح؟" زاد تعجبهما وأجابني مساعده:" هذه أول رحلة لي دون إناث. لابد أن السقوط ذاك أثر عليك". اااه حسناً شكرا لك، مادام أنه لم يكن حلما فمن تكون تلك الفتاة؟

خرجت من الحافلة، توجهت مستقيما نحو الغرب. لا أدري إلى أين، ألتفت يمنة ويسرة كي لا أتيه. مشيت مدة خمس دقائق ثم نظرت ليساري، مدرسة فائقة الطول قصيرة العرض وجدرانها مطلية بالأحمر مكتوب على لافتتها "متوسطة فضيلة سعداني". راودني إحساس غريب، وكأني أعرف هذا المكان. وقفت برهة أتمعن واجهة المدرسة ثم خرج منها رجل ذو لحية كبيرة وسروال(كومبا) بني ومئزر (قمجة) بنفس اللون حتى أن لون الرجل بني قليلا. إنه مراقب يعمل هنا وهو ذاهب لمنزله بعد أن أنهى الدوام. اتجه نحوي أو لنقل أني كنت واقفا في طريقه. يبدو متواضعا من كثرة نظره للأرض ولحيته التي زادته هيبة كالأسد. أصبح بيني وبينه مترين أو ثلاثة فرفع رأسه، تغيرت ملامحه تماما، السعادة تقطر منه وبصوت أجش قال لي: "هل أنا أحلم؟؟ العباس واقف أمامي".

صوته ومشيته وشكله، هذا الرجل مألوف، أعرفه لكن لا أتذكره. عاد الصداع مجددا وطرحت أرضا، آخر كلمات سمعتها هي: "العباس، العباس. استيقظ". بعدما فقدت وعيي تحول شعور الرجل من الفرح الى التوتر. يقول في نفسه: "ماذا سأفعل؟ المستشفى بعيد من هنا وأنا متعب، حسنا سآخذه للمنزل". الحمد

لله أنه ذو بنية قوية فاستطاع حملي والمشي بي 900 متر كاملة، الناس متعجبون ويكثرون عليه الأسئلة: "من هذا؟ إلى أين يا عبد الله" لديه صبر لا يمكن تخيله لأنه تجاهل أسئلتهم كلها ولم ينطق ببنت شفة. أخيرا وصل لبيته ووضعني قرب الباب، أخرج مفتاحه. يداه ترتجفان من شدة التوتر، أدخل المفتاح بعد عدة محاولات ودخل بيته حاملا إياي. قابلته زوجته وهي مرعوبة من جثتي، تلعثمت الكلمات في لسانها وقالت بصعوبة: "م..من هذا؟ هل هو ميت؟" رد عليها بوجه مبتسم: "انظري لوجهه كي تعرفي". اقتربت مني قليلا، ههه تلك الفرحة على وجهها لو وزعت على أهل الارض لكفتهم. اختفى خوفها مباشرة ثم عادت تسأل زوجها مجددا: "هذا العباس! هل هو ميت؟" ابتسم مرة أخرى لها وأردف قائلا: "لا، لايزال حيا، سننتظر استيقاظه". حملاني إلى السرير ليضعاني عليه وبقيا مستيقظين طوال الليل يراقبانني. فتحت عيني ببطء كأن هناك غطاءً ثقيلا عليهما. تثاءبت وأنا أفرك عيناي، علمت هنا أني كنت نائما بسبب التعب وقد زال ألم الرأس. التفتت ليميني واذا بالرجل ذاك جالس قربي، بدأت غريزة الفضول بالعمل:

"أين أنا؟ ومن أنت؟" ابتسم لي وقال: "أنا عمك عبد الله". اااه تذكرت ما قالته لي حنان عن عمي وخالتي في عين صالح.

-عمي: ما بك شارد الذهن؟ ألا تتذكرني؟

-أنا: فقدت ذاكرتي قبل عام لذا لا أتذكر.

-عمي: (دخلت خالتي الغرفة) هل تتذكر هذه؟

-أنا: لا، من تكون؟

-عمي: هذه خالتك يا بني. طال غيابك كثيرا.

-خالتي: استيقظت أخيرا. العاقبة لأمك.

-أنا: ما بها أمي؟ هل أصابها مكروه؟

-خالتي: دخلت في غيبوبة منذ اختفائك ولم تستيقظ بعد.

-أنا: علي العودة لأدرار حالا. يجب أن أراها.

-عمي: ألم تقل أنك لا تتذكرها.
-أنا: لا يهم. المهم أنها لاتزال أمي.
رن هاتف عمي. نظر إلى الهاتف وقال: " يا للمصادفة هذا أبوك. لابد أنه يريد الاطمئنان علي."
-أبي: لدي لكما خبر سيسعدكما.
-عمي: حتى أنا. أسعدني أنت الأول.
-أبي: استيقظت زوجتي وحالتها مستقرة وستغادر غدا.
-عمي: ما هذا الخبر؟ ان المعجزات تصب علينا صبا.
-أبي: جاء دورك مع أني أظن أن لا خبر سيسعدني بعد هذا.
-عمي: لا تكن واثقا. فالعباس بجانبي الآن.
-ناولني عمي الهاتف.
-أنا: (وضعت الهاتف على أذني وانتظرته أن يبدأ الحديث لكني كنت أسمع بكائه الذي منعه) أهلا أبي.
-أبي: أهلا بني اشتقنا لك يا قرة عين أمك.
-أنا: أنا فاقد للذاكرة يا أبي لذا لا أستطيع تذكر رابطتنا.
-أبي: سأعطي الهاتف لشخص وانظر إن كنت ستتذكره. أعطى الهاتف لأمي.
-أمي: أهلا العباس. هل تتذكرني؟ أنا آسفة لأني لم أهتم بك.
أحسست بشيء غريب صعد من قلبي نحو رأسي ثم أخذني دوار شديد وظهر شريط حياتي أمام عيني. هذا أنا وسط الأطفال أتلقى الضرب والاهانة. وأنا هنا أعلم فتاة الفيس بوك أساسيات الهكر، هذه هي المجموعة وهذا هو معلمي الهواري وباسم ووووو. انتهى ذاك الشريط ثم عاد لرأسي مسرعا. كانت هذه ذاكرتي قد عادت أخيرا.
-أنا: أنت أمي أليس كذلك؟
-أمي: بلى بلى (بكاء شديد). متى ستعود إلينا؟
-أنا: ليس بعد يا أمي. لدي عمل سأقوم به أولا، سأعاود الاتصال بك عندما أنوي التحرك ان شاء الله.

-أمي: حسنا. المهم ألا تتأخر.
(قطعت الاتصال وفي نفس اللحظة رن هاتف المنزل الثابت)
-عمي: أهلا. من معي؟
-المدير: حاولت الاتصال بك في هاتفك ولم أستطع، لحسن الحظ لدي هاتف منزلكم.
-عمي: هذا لأني كنت في مكالمة مع أخي.
-المدير: اسمع. وجدنا قنبلة داخل إدارة المؤسسة، أعلم أن اليوم هو يوم عطلتك لكني لا أعرف شخصا مناسبا لإخلاء المدرسة غيرك.
-عمي: حاضر. بعد عشر دقائق سأكون عندك.
(انتهى الاتصال)
-عمي: سأذهب إلى المتوسطة فهناك أمر طارئ.
(خرج عمي مسرعا لدرجة أنه نسي زي العمل)
(رن هاتفي وكان المتصل هو باسم. انهم العصابة)
-المتصل: وصلنا لنهاية الطريق يالعباس. للأسف ستموت قبل أن تستعيد ذاكرتك. هناك قنبلتان زرعناهما، الأولى في متوسطة فضيلة سعداني والثانية في مكان لن أخبرك اياه، وأيضا فلا تفكر أنك ستنجو لأن في كل قنبلة ملغرامين من اليورانيوم وأظنك تعرف هذه المادة جيدا، خسرنا رجالا بسببك وحان وقت دفع الثمن.
(انقطع الاتصال ورن الهاتف مجددا بمكالمة من عند الضابط)
-الضابط: سمعت أن هناك قنبلة في عين صالح وأنا آسف لأني لن أستطيع مساعدتك. لازال لديك وقت للهروب.
-أنا: لا تقلق علي أيها الضابط. أنا عند عمي وخالتي وقد بدأت اللعبة للتو فلم الاستعجال. (قطعت الاتصال)
رن هاتف خالتي فسألتها متوترا من هذا؟
-خالتي: إنه أخي. لابد أنه يريد الاطمئنان عليك

-المتصل: أهلا عمتي. أنا زهرة، أريد التحدث مع العباس لو سمحت. (ناولتني الهاتف وقالت أنها ابنة خالي)
-أنا: زهرة أليس كذلك.
-خالتي: الآن اطمئن قلبي أنك تذكرتنا. الحمد لله

* * *

بعد انتهاء الاتصال الاخير مع الضابط:
-النائب: سيدي. هل استطعت اقناعه بالهروب؟
-الضابط: لا داعي لهذا. فالعباس الآن أصبح المتحكم.
-النائب: مالذي سنفعله؟ هل سنساعده؟
-الضابط: جهز لي طائرتي. سآخذ إجازة.

* * *

-العميل: هناك قنبلة نووية في عين صالح ان انفجرت ستمحى دائرة نصف قطرها ثلاثة كلم.
-الرئيس: وكيف أحوال العباس؟ ماذا حصل معه؟
رن الهاتف الثابت الجديد.
-الرئيس: ألم أخبركم أن تغيروه وتتخلصوا من القديم؟
-العميل: غيرناه بالفعل يا سيدي.
رد الرئيس على الهاتف
-المتصل (الضابط): أنصحك أن تأخذ إجازة كما فعلت أنا.
-الرئيس: نحن في أصعب ايامنا وأنت تتحدث عن الاجازة.
-الضابط: لا تقلقوا على شيء بعد الآن فالعباس تذكر الكل.
-الرئيس: جيد. اذًا سيساعدنا في عملنا كثيرا.
-الضابط: أنصحكم أن تبتعدوا عن طريقه فستعيقونه لا غير.
(قطع الضابط الاتصال)
-الرئيس: لا أعرف كيف يجد رقمنا هذا الضابط المغرور.
-العميل: أظنه بسبب استيرادنا للهواتف من مصر.

-الرئيس: غيروه بهاتف من بلد آخر.

* * *

-زهرة: كيف حالك يا العباس طمئني عليك.
-أنا: في أحسن حال. سأتأخر في العودة الى المنزل فلدي مشاكل سأحلها أولا.
-زهرة: هل أنت خائف من سخرية الأولاد منك؟
-أنا: ههه تلك لم تعد مشاكل بالنسبة لي. أريد منك الذهاب لبيتنا وتفتيشه شبرا شبرا.
-زهرة: عن ماذا تريدني أن أبحث؟
-أنا: عن ساعة رقمية أو شيء من هذا القبيل.
-زهرة: حسنا، اذا وجدت شيئا سأعاود الاتصال بك.
انتهى الاتصال
-أنا: خالتي. هل لديكم حاسوب محمول؟
-خالتي: نعم، ستجده في الخزانة هناك.
-قمت من مكاني متجها نحو الخزانة، فتحت الباب ثم سحبت الدرج وحملت منه الحاسوب.
رن هاتف خالتي مجددا فقلت: "هل هذه زهرة؟"، نظرت خالتي للهاتف ثم أجابتني بغرابة: "لا. انه رقم هاتف ثابت"
طلبت منها أن تترك لي المكالمة وكان ذلك.
-أنا: آلو من المتصل؟
-المتصل: أنا رئيس الاستخبارات.
-أنا: أشكرك على حمايتي كل هذه المدة رغم خسارة رجالك.
-الرئيس: ما كانوا ليضحوا من أجلك لولا حبهم لك، أهنئك على كسب قلوبهم.
-أنا: هذا لأنهم عائلتي الثانية.
-الرئيس: لقد تركنا لك كل شيء. حان الوقت لنعتمد عليك.

-انا: هذا ما أردت طلبه منك. كنت دائما أُهان في حياتي وأنا أشاهد دون حراك ولكن الآن لن أكرر الخطأ.
-الرئيس: أحسنت. أمان عين صالح وأرواح كثيرة متعلقة بالله ثم بك. نحن نشاهد خطواتك القادمة.

* * *

-خالي: إلى أين تذهبين يا بنيتي؟
-زهرة: طلب مني العباس أن أبحث في منزله عن ساعة.
-خالي: غريب. مالذي يريده بها؟
-زهرة: لا أعرف، لكني سأنفذ طلبه.
(خرجت زهرة من بيتها وسارت على طول الطريق مسافة 100متر ثم استدارت يمينا. ها هو منزلنا ذو الطابقين، أدخلت المفتاح وأدارت القفل لتطل على باحة صغيرة تتفرع منها الأبواب، وسلم في الركن يوصل للطابق الثاني. خمس أبواب (المطبخ – المرحاض مع الحمام – ثلاثة غرف). دخلت المطبخ لتفتش فيه. ثلاجة من النوع الكبير بدأت بفتحها فلم تجد سوى أنواع الأطعمة ثم أدراج المنصة (البوطاجي) ولم تجد شيئا. فكرت كم أنها بلهاء تبحث عن ساعة في مطبخ! ذهبت للغرفة الأولى وأحست نفسها محظوظة عندما وجدت فيها صندوقا متوسط الحجم (19×20×25) على وجهه الأمامي ساعة رقمية تشير إلى تمام السادسة وتتناقص شيئا فشيئا. شعرت بلذة الانتصار وأخرجت الهاتف لتتصل بالعباس وتخبره.

* * *

دخلت لمتصفح pale moon لأنه المفضل لدي، هذا بعدما اخترقت ويفي الجيران (ليس من عادتي السرقة لكن هذا فيه مصلحة بلد بأكمله) علي اختراق موقع العصابة ثانية.
(رن هاتف خالتي مجددا)
-خالتي: هذا هاتف أخي انها زهرة.

-زهرة: لقد وجدة ساعة رقمية في غرفة أخيك ولكنها ملصقة بصندوق ولم أستطع نزعها. هل آخذ الصندوق للمنزل؟
-أنا: لا لا. اتركيه هناك. الى كم تشير الساعة فيه؟
-زهرة: هذا مؤقت وليس وقتا. تشير إلى الرابعة والخمسون.
-انا: ستبقين في منزلنا ستة عشر دقيقة ثم ستذهبين. انتظري حتى أعاود الاتصال بك لأخبرك ماذا تفعلين. (قطعت الاتصال)
-خالتي: ماذا يحدث يالعباس؟ خروج عمك مستعجلا ثم هذا العدد المتتالي من الاتصالات يأتيك!
-أنا: لا وقت لدي فالشرح يطول كثيرا. عندما أكمل عملي سنتكلم كثيرا في الموضوع لذا لا تقلقي يا خالتي.
-رن هاتف المنزل مجددا، حملت السماعة فسمعت صوت فتاة لم أصادفه في حياتي.
-المتصل: مر زمن طويل يا العباس.
-أنا: لقد أخطأت في الرقم يا أختي.
-الفتاة: لست مخطئة فتلميذتك لا تخطئ في هكذا أمور.
-أنا: تلميذتي؟ ااه جميلة. كيف حالك؟
-جميلة: بخير الحمد لله. كنت أتتبعك طيلة هذه المدة منذ دخولك للجزائر واتصلت بك الان لأخبرك أني تفوقت عليك.
-أنا: ههه هذا جيد. جئت في وقتك. حان موعد رد جميلي لك.
-جميلة: أطلب وأنا تحت أمرك معلمي.
-أنا: سأرسل لك رابطا لموقع وقومي أنت باختراقه وابحثي فيه عن مخطط لقنبلة.
-جميلة: وأنت ماذا ستفعل؟ ألا تستطيع فعل هذا؟
-انا: لدي مهمة أخرى. سأنتقم لأصدقائي أولا.
-جميلة: أرسل لي الرابط وبعد خمس دقائق سأرسل لك المخطط.
-قطعت الاتصال وعدت للحاسوب. فتحت الفيس بوك، مئات الرسائل والاشعارات وطلبات الصداقة تجاهلتها كلها واتجهت مسرعا لدردشة جميلة وفيها الكثير من الرسائل سأقرؤها فيما بعد. أرسلت لها الرابط وعدت أنا لموقع العصابة لأبحث عن

مقرهم. ما هي إلا ثوان حتى وجدته. منطقة بين تمنراست وعين صالح تسمى (آراك). الآن العملية الأصعب وهي اختراق نظام الصواريخ الأمريكي.

* * *

-من مقر الجيش الأمريكي:
-العميل: هناك شخص اخترق نظامنا يا سيدي. انه خارق المهارة ويخفي نفسه بأعقد الخوارزميات.
-القائد: افصلوا الطاقة عن جميع الأنظمة الحاسوبية.
-ظهرت على الشاشات جملة: سآخذ صاروخا واحدا فلا تقلقوا.
-القائد: أسرعوا بعزل الطاقة قبل الكارثة.
-العميل: فات الأوان يا سيدي فالصاروخ انطلق بالفعل.
-القائد: أرسلوا خلفه صاروخ ليفجره قبل أن يسقط.
-العميل: فقدنا التحكم في جميع الحواسيب.
-القائد: هذه أكبر عملية قرصنة حصلت. تبا.
-نشرة الأخبار: -عاجل: صاروخ أمريكي يضرب منطقة في آراك غير مأهولة بالسكان وأمريكا تؤكد أن هذا أكبر اختراق حصل لهم والجيش الجزائري يقول أن راداراته تعطلت.

***

رن الهاتف مجددا بعد خمس دقائق:
-أنا: يبدو أنك ملتزمة بمواقيتك جدا.
-جميلة: لقد أرسلت لك صورة للمخطط. هل تريد شيئا اخر.
-أنا: لا شيء آخر. أشكرك على هذه الخدمة.
-جميلة: عرفت كل شيء عندما دخلت للموقع. القنبلتان مترابطتان واذا فككت واحدة قبل الثانية سينفجران معا.
-أنا: حسنا شكرا لإخباري. سأبذل ما بوسعي لمنع الكارثة.
-جميلة: كيف ستفعل شيئين معا؟ إيقاف القنابل والانتقام؟

-أنا: ههه أكملت انتقامي في الخمس دقائق تلك. عندما أنهي كل شيء سأعاود الاتصال بك. قطعت الاتصال.
-المخطط أمامي الآن، إنها مملوءة بالأسلاك، أين هو السلك الذي يغذي هذه اللعنة بالطاقة؟

* * *

-العميل: منطقة سقوط الصاروخ كانت مقرا سريا للعصابة.
-الرئيس: كم من جثة وجدتموها؟
-العميل: عشرون شخصا لقوا حتفهم وعشرة أشخاص أمسكنا بهم.
-الرئيس: جيد. دعوا الصحافة تنشر خبر الوفيات ودعوا أمر المعتقلين سريا.
-العميل: ماذا سنستفيد من هذا يا سيدي؟
-الرئيس: هذه العصابة مدعومة من أمريكا وإذا نشرنا الخسائر البشرية فسيدفعون أموالا طائلة وهذا عقاب لهم.

* * *

كريمة متكئة في غرفتها وتحمل هاتفها كالعادة. تبحث في فلسفة مريض نفسي عني إذا عدت. صرخت لها الجدة قائلة: "تعالي يا ابنتي لدي لك مفاجأة". وضعت هاتفها أرضا وقالت: "أنا قادمة يا جدتي" راحت تترنح من كثرة الجلوس وبالها مشغول في ماهية المفاجأة فهذه المرة الأولى التي تقول لها الجدة هذا. وصلت عند الباب واذ برجل شديد البنية حاد الملامح، كان هذا هو والدها الضابط. سبقتها الدموع بالتحرك، وقفت مصدومة من الفرح وقالت بصوت أجش: "أ.. أبي" هجمت عليه كالأسد تعانقه.

* * *

غادرت بيت عمي بعدما حفظت المخطط عن ظهر قلب وأخذت معي هاتف خالتي. ركضت قرابة الخمس دقائق حتى وصلت للمتوسطة. سيارات كثيرة مركونة في الموقع والتلاميذ كلهم أقراني، مصطفون بعيدا يراقبون بخوف. اقتربت من البوابة. ثلاث حراس منهم عمي واقفين على الباب. تبقى بيني وبينهم متر فنطق عمي معاتبا: "ماذا تفعل هنا؟ الموقع خطير. إن فرقة القنابل تعمل عملها الآن لذا ابتعد وقف قرب أقرانك يا بني" قال كل هذا الكلام وهو يضع يده على كتفي، جعلت يدي على يده وقلت: "الذي أمامك الآن ليس العباس القديم. ثق بي فلن يفلحوا مهما فعلوا" تمعن في عيني لمدة ثم أمسكني من يدي وأدخلني المدرسة. الإدارة فارغة تماما سوى من الشرطة الأربعة. تعجبوا عندما رأوني ولسان حالهم يقول: "ماذا يفعل هذا الأحمق بإدخال طفل إلى هنا؟". قاطع عمي تفكيرهم قائلا:" لدى هذا الصغير ما يخبركم به" قال أحدهم:" تكلم بسرعة فقد تبقت خمس دقائق للانفجار" نظرت اليهم نظرة الواثق من نفسه: "قضيتم عشر دقائق وأنتم معها ولم تفهموا شيئا في تركيبتها. هذا لأنها مصنوعة في مصنع خاص وبأيدي احترافية ". كلامي كان صائبا جدا نظرا لصغر سني هذا جعلهم يفتحون أفواههم من الدهشة.

-قائد الفرقة: من أين تعرف كل هذا يا صغير؟

-أنا: هناك قنبلة أخرى في -أولف- وسينفجران إن لم يقطع السِلكان في نفس اللحظة.

-قائد الفرقة: أي سلك سنقطعه؟ ان الألوان مقلوبة تماما.

-أنا: كل الألوان ستجدها مكررة سوى لون واحد.

-رجل: هذا صحيح أيها القائد. الأسود هو الوحيد غير المكرر

-القائد: اقطعه بسرعة وأوقف القنبلة.

-أنا: لا. توقف. ألم تسمع كلامي الأخير؟!

-القائد: نسيت. من سيقطع السلك في القنبلة الأخرى؟

-أنا: لا تقلق. سأتصل به.

-رن هاتف خالتي الذي في جيبي.
-أنا: أهلا زهرة، اتصلت في وقتك تماما.
-زهرة: مللت الانتظار. ماذا سأفعل؟
-أنا: (ضغطت مكبر الصوت) إلى كم يشير العداد؟
-زهرة: إلى دقيقتين وثلاث ثواني.
-نظر الأربعة الى القنبلة فوجدوا نفس التوقيت فزادت ثقتهم بي.
-أنا: انزعي الصندوق العلوي بحذر.
-زهرة: إنه صلب جدا لا أستطيع نزعه.
-أنا: ابحثي عن أداة ما وافتحيه بها.
-زهرة: سأذهب إلى المطبخ وأحضر سكينا.
-خرجت من الغرفة نحو المطبخ فوجدت سكينة قديمة موضوعة على "البوطاجي" أخذته وعادت مسرعة إلى الغرفة فوجدت العداد يشير إلى دقيقة وخمسون ثانية؛ فتحت الغطاء ثم أخذت الهاتف لتكمل المكالمة.
-زهرة: ها أنا فتحته، ماذا بعد؟
-أنا: سأخبرك الحقيقة الآن. هذه التي بين يديك هي قنبلة، وعند انتهاء العداد ستمحى أولف من الخريطة.
-زهرة: (أصيبت برعب كبير) ماذا علي ان أفعل؟
-أنا: ستجدين سلكا واحدا غير مكرر ولونه أسود.
-زهرة: كل الأسلاك مكررة حتى الأسود هناك اثنان منه.
-انبهرنا جميعا وارتعشت أطرافنا من الفزع. لابد أن أحدهما فخ ماذا سنفعل؟
-زهرة: انزع مكبر الصوت ودعنا نتحدث على انفراد.

* * *

كريمة ووالدها جالسان في غرفة التلفاز.
-نشرة الأخبار: تم قصف منطقة في آراك بصاروخ أمريكي.
-الضابط: أحسنت يا العباس. لم تخيب ظني.

-كريمة: ذكرتني. هل قال لك العباس شيئا؟
-الضابط: نعم. قال لي كل شيء.
-كريمة: ما رأيك في ذاك الفتى؟
-الضابط: رغم صغر سنه إلا أنه فعل ما لم نفعله نحن. إنه أروع شخص قابلته في منذ بداية عملي.
دق شخص ما الباب
-الجدة: من في الباب؟
-الرجال: نريد مقابلة خالد.
-الجدة: انتظروا لأناديه.
-ذهبت الجدة إلى الغرفة لتخبر الضابط خالد فقال في تعجب: يستحيل؟ كيف علموا أنني هنا ؟ من يكون هؤلاء الرجال؟

* * *

-زهرة: سأقطع سلكا أسودا دون تفكير.
-أنا: وماذا لو قطعت السلك الخطأ؟
-زهرة: سأعترف لك بشيء. طيلة تلك الأيام التي كنت تعاني فيها أنا كنت أكن لك الحب لكنني لم أستطع الاعتراف لك.
-أنا: ماذا لو اعترفت حينها؟ هل كنت سأعاني كل هذا؟
-زهرة: أريد أن أصحح خطئي. هناك طريقة واحدة وهي الاستماع لصوت القلب.
-أنا: (تبقت عشر ثوان) حسنا، لنفعلها معا.
(قطعت الاتصال)
أخذت مقصا من أحد الرجال. تلاشت جميع الأفكار العالقة في رأسي. تبقى صوت واحد قال لي: "قص الآن"
-زهرة خائفة من أن تخطأ لكن حبها للعباس أعطاها ثقة بنفسها ودفئا. سمعت صوتا داخلها يقول: "اقطعي الأيمن الآن".
-ساد الصمت المكان لبرهة ثم نظر الجميع للعداد فقد كان متوقفا عند الصفر وثانيتان. رقص الرجال فرحا وحملوني فوق

ظهورهم وأخرجوني للشارع يلوحون بي ويقولون: " أنقذنا الفتى أنقذنا الفتى" اجتمع الصحفيون حولي يطرحون الأسئلة لكن عمي أخذني وقال لهم: "لا إجابات لا إجابات".
-وصلتني رسالة من عند حنان مكتوب فيها : "أحسنت صنعا"
-حل الظلام بعد يوم شاق.
وبعدها وصلت لعين صالح وهذا ما حدث.
-عمي: لقد مررت بمغامرات طويلة اذًا.
-خالتي: متى ستعود لعائلتك في أولف.
-أنا: غدا في أول سيارة إن شاء الله.
-رن هاتف المنزل وقد كنت أعرف المتصل لذا رددت عليه.
-أنا: شكرا لك جميلة. لقد ساعدتني كثيرا.
-جميلة: لا شكر على واجب. عندما تعود لبلادك ما رأيك أن نضع تحدٍ لنرى من الأمهر بيننا؟
-أنا: ههه . قررت اعتزال القرصنة ابتداءً من الغد.
-جميلة: خسارة. لكن لا بأس، ستبقى معلمي. اعتني بنفسك.

حل الصباح وحان وقت رحيلي. أطلت عناق عمي وخالتي وقد أخبراني بأنهما سيزوراننا في العطلة القادمة. أوقف لي عمي تاكسي ليأخذني للمحطة. حجزت تذكرة الحافلة لكنها تأخرت في الانطلاق وهذا ما أزعج المسافرين. اجتمعوا حول السائق وقال أن هناك أربعة أماكن فارغة لديه ويجب ملأها. أكره مثل هؤلاء السائقين الشرهين، يؤخرون الناس عن مواعيدهم من أجل المال، شعرت بشيءٍ لمس ظهري، أردت تحسسه ظنا مني أنها حشرة لكن صوتا جمدني في مكاني. قال لي: "حانت نهايتك يا العباس"
-أنا: أخيرا أظهرت نفسك أيها الزعيم، أو فلنقل نذير بهلول مؤسس فلسفة مريض نفسي.
-نذير: بالطبع ستتذكرني لأني أنا من حذف منشورك وأخبرتك حينها أننا لا نقبل الروابط.

-أنا: ليس من هذه، ولكن عندما دخلت موقعكم حينها وجدت معظم الأعضاء المشهورين في المجموعة موجودون في الموقع، فنشرته في المجموعة كي أستفسر.
-نذير: أنت بتّ تعلم وحياتك خطر علينا.
-أنا: دعم أمريكا لكم، مخازن المؤن، مصانع القنابل، مواقعكم الفرعية كلها قد أرسلتها لصديق لي وسيفضحكم للعالم.
-نذير: بعد أن اقتلك سأقتل كل من له علاقة بك وسأبدأ بذاك الذي أوقف القنبلة في أولف.
-أنا: (أعضائي ترتجف، هل حان الوقت الذي أخبرني عنه رجل الفندق؟ لا. ليس الآن فالناس من حولي، حتى إذا أردت مراوغته سيصيب أحدهم. ماذا أفعل ماذا أفعل؟
سقط الزعيم (نذير) فجأة ميتا. استدرت للخلف لأرى ماذا حصل. وجدت شخصا يلبس ثيابا سوداء ويحمل مسدسا، أشار إلي بيده أن كل شيء بخير. ركب سيارته السوداء وكان فيها ثلاث رجال آخرين وانطلق بعيدا.
-فزع الناس الموجودون وذلك السائق الشره أصبح يصرخ في ركابه كي يصعدوا بسرعة. قال له أحدهم باستنكار: "ألم تكن تنتظر الأربعة ركاب؟" قال بخوف "سيحققون معنا ان وصلت الشرطة الى هنا"

"حقا إن الشراهة تنتهي عند أول مطبّ"

... يتبع